اليتيم الهاشمي
صلى الله عليه وسلم

د.عبدالوهاب القرش

من إصدارات

دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

إصدارات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع
اسم الكتاب: البتيم الهاشمش صلى الله عليه وسلم
اسم المؤلف:عبدالوهاب القرش
رقم الايداع:27061 /2019م
ترقيم دولي:978-977-6663-90-9
حقوق الطباعة محفوظة للدار وللمؤلف
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزته
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أي شكل من الأشكال
المعروفة حاليا أو التى ترد مستقبلًا دون إذن خطي مسبق
المراسلات:
دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع
المقطم الهضبة الوسطى الحي الرابع منزل رقم 5275 شارع عماد مصطفى
موبايل:01144059975 ت: 27304004

مقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله.. الرحمة المهداة ..والنعمة المسداة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.. وبعد:

يعيش اليتيم – في عصرنا – بين يُتْمَيْن: يُتم واقع أفسده التدبير، ويُتم صنعته الغفلة وغذاه التفريط.. فإذا ماتت الرحمة باليتيم فلم يبق في الأرض إلا شيئين بمعنى واحد: قبور الأموات في بطنها، وبيوت الأيتام على ظهرها، وليس من فرق بينهما في النسيان؛ لأنه يشملهما جميعًا، وإنما الفرق بينهما في حاليهما المتناقضتين، هذا قبر الأب الميت ، وذاك قبر ابنه اليتيم الحي!

ولما رأينا أن وضع اليتيم في عصرنا يقارب ما كان عليه اليتيم سابقًا قبيل البعثة النبوية؛ عزمنا على الكتابة في سيرة " اليتيم الهاشمي..صلى الله عليه وسلم" ،لأنه صلى الله عليه وسلم كان مثالاً حيًّا لحياة اليتيم، بكل أبعادها وقسوتها، فكان سيرته صلى الله عليه وسلم تسلية ومواساة لكل يتيم ، و قدوة لكل كافل ليتيم ، وفي كل المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس.

" اليتيم الهاشمي" هو العنوان الأبرز لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى في سياق تعداد نعمه على نبيه صلى الله عليه وسلم:**{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى}**(الضحى:6) .. " اليتيم الهاشمي" عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة، ولا يتعداها. فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة ، تضاف إلى آلاف السير العربية والأجنبية ، التي حفلت بها " المكتبة النبوية " حتى الآن؛ ولكنه يبرز جانبًا واحدًا من شخصيته صلى الله عليه وسلم وهو اليُتم، وكيف كان تأثيره عليه في حياته كلها في تعامله مع الأيتام.

وليعلم القارئ أيضًا أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأحكام الفقهية المتعلقة باليتم والأيتام، وإن تكلم الكتاب عن كثير منها، فذلك غرض لا يتسع له هذا الكتاب، وليس لنا أن نتصدى له بعد أن تصدى له الفقهاء مرارًا، وأكثروا من الكتابة فيه.. وإنما نهدف إلى إبراز يُتم النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة مع الأيتام ورعايته لهم، حيث كان يتلقى التوجيه من الله ، وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد حاولنا قدر الإمكان أن يكون الكتاب جامعًا لكل ما يتعلق بجانب اليتم وأثره في حياة النبي اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك فالكتاب مقسم إلى ميادين شتى، وحاولنا ألا ندع آية قرآنية أو حديثًا شريفًا، أو موقفًا في السيرة النبوية، يخدم هذا الغرض إلا جمعناه بتنسيق دقيق، مع الإيجاز والتركيز حتى لا يمل القارئ الكريم، فأصبح الكتاب أشبه ما يكون بباقةً من الزهور اليانعة من المواقف النبوية، كل زهرة تمثل مشهدًا من مشاهد رعاية النبي صلى الله عليه وسلم لليتيم، قدمناها هدية للبشرية كلها، لعلها تفيق من سكرتها، وتعلي من شأن اليتيم كما أعلى القرآن الكريم شأنه، وأمر بالإحسان إليه وعدم قهره، قال تعالى: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** (الضحى:9).

ولستُ ندَّعي أن كتابنا هذا يُسمنُ أو يُغني من جوع؛ وإنا نرجو الله أن ينزل هذا الكتاب من قلوب اليتامى منزلًا حسنًا، وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة، ويمنحهم العبرة والقدوة، في خير الخلق وسيد البشر، وأيضًا أن يكون زادًا للدعاة إلى الله، ليبرزوا هذا الجانب المهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد تكون لكلماتهم النيرة إشراقات وتجليات مضيئة في قلوب اليتامى أو المحسنين إليهم البارين بهم، فتعد ثروةً نافعةً لكلاهما في الدنيا والآخرة.

وأخيرًا إلى كل من يقرأ هذا الكتاب بنية الاستفادة والإفادة، فنرجو أن يأخذ منه ما صفا، ويدع منه ما كدر، ثم يذيع ما استفاد منه ، ويستر ما يراه زلة، ويُتبع ذلك كله بدعاء خالص أن ينفع بهذا الكتاب العباد، وأن يتقبله عنده بقبول حسن.

عبدالوهاب القرش

علامات من سيرة اليتيم الهاشمي

عالم اليتيم قبل مولده:

كان المجتمع العربي وقت ميلاد النبي الهاشمي محمد صلى الله عليه وسلم مجتمعًا متداعيًا قد دنت نهايته.. وخلاصة ما يقال فيه: إنه مجتمع افتقد مقومات الوحدة التي تجعل منه أمة متماسكة، وبخاصة ما يتصل بالعقيدة والنظام.. علاوة على أنه مجتمع اختفت فضائله في الأعم الأغلب من جوانب الحياة، وبرزت رذائله بأشنع صورها، فهناك وأد للبنات، وزواج للمحارم، وسطو على الضعفاء، وانتشار للظلم والعدوان، وحروب دامية تنشب لأتفه الأسباب. مجتمع يُعامل فيه الأرامل واليتامى وسائر الضعفاء في الأعم الأغلب من الحالات كأنهم من سقط المتاع، وبقية الميراث الذي خلفه الميت.

كانت مكة المكرمة –مركز الأرض– في أيديها تجارة المنطقة كلها.. ولكنها كانت مجتمعًا ضائع بين الأوثان المستعارة من الوثنية الضاربة بجذورها في الممالك القديمة، وطُمس فيها التوحيد الذي ورثته عن أبويها إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وضاعت معالمه في ضروب من عبادة الأوثان، ولا يلتزم أبناؤها بالأحكام الربانية.. وبين الهمجية البدوية التي نتج عنها مجتمع يعيش حالة من التكالب على المتع المادية، والحرص على جمع المال بكافة الطرق، ومن أبشعها وأشنعها، الغش في التجارة، وإكراه الفتيات على البغاء، والربا... إلخ, إنها حالة تُورث القلوب كزازة وقساوة, وكان ضعف اليتامى مغريًا بانتهاب ميراثهم وأموالهم.

كان المجتمع الجاهلي مجتمعًا في الأعم الأغلب من حالاته قاسيًا مأساويًّا، لا يعرف غير لغة القوة والاستعلاء، إذا مات عائل الأسرة فإن أولاده من بعده يعيشون في

يد الوصي، فيأخذ كل ما يقع تحت يده من ممتلكات خلفها أبو اليتامى من مال أو ثوب أو متاع باسم الميراث، ثم يستلب من اليتامى أمهم بالزواج، فيضمها إلى غنيمته وأمواله.. وإذا تكلم اليتيم لا يسمع منه، ثم إنه لا يؤبه به ولا يُحترم.. وتنحاز طبائعُ أهل المجتمع الجاهلي كلها في جهةٍ، واليتيم وحده في جهة، حتى لا يرى هذا المسكين في المجتمع الجاهلي على سعته غير استبداد أوليائه –الذين هم أقرب الناس إليه– بأمه وممتلكاته، ويفترض بهؤلاء أن يكونوا أحنى عليه من أي طرف آخر، فتقع في نفسه حسرة، تخنقه ليلاً ونهارًا، عبّر عنها الشاعر الجاهلي طَرَفَة بن العبد –وكان يتيمًا– بقوله:

وَظُلْمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

والعجيب أن مكة في العصر الجاهلي كانت تتغنى بالكرم والمروءة.. ولكن تُرَى أين كانت شرائع المروءة والكرم بالنسبة لليتيم؟ هل هي في ضمائرهم، أم في قصائدهم، أم في تاريخهم الميت القديم، ليس لليتيم حق عندهم؛ إلا هذا الإحسان البخس القليل من الذين لم تمت في قلوبهم كل معاني الإنسانية. وهو إحسان مشوب بالمنة والاستعلاء في كثير من حالاته، ولا عجب في ذلك، فقد فصلوا أنفسهم عن هداية السماء، وقطعوا الروابط التي كانت تربطهم بها، ونبذوها وراء ظهورهم، فكان لذلك أوخم الأثر على سلوكياتهم تجاه اليتيم، فلم يرحموا فيه ضعفه ويتمه، بل انقلبوا عليه، وأكلوا ماله، وتركوه في الخيمة كالأسمال البالية، ليس له حق إلا إذا اكتسبه فيما بعد بسيفه وعرقه.

لقد ظلم المجتمع العربي الجاهلي اليتيم ذكرًا كان أو أنثى، وحرمه من حقوقه في العيش بحياة كريمة.. وقد بين القرآن الكريم ما كان يعانيه اليتيم من ظلم وإجحاف لحقه، وأكل لماله، حتى أصبح ذلك الهضم القاعدة الأساسية عندهم في الميراث يتوارثونها عبر أجيالهم دون نكير، فاليتيم الصغير لا حق له في ملكية شيء من حطام هذا العالم، فقد ذكر الطبري أن أهل الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد

من ورثته بعده ممن كان لا يلاقي العدوَّ، ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده، ولا للنساء منهم. وكانوا يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية[1].

فالميراث كله يذهب إلى المحاربين حملة السيوف، أما النساء والضعفاء وبقية الأطفال الأيتام إن وجدوا فلا نصيب لهم، هذه هي القاعدة الاجتماعية في الميراث، والجميع ينصاع لها، فحملة السيوف مستفيدون، والصغار والضعفاء لا يملكون حق الاعتراض، فيكبر اليتيم الصغير فيجد أخاه الأكبر قد سلبه حقه، أو أن عمه قد سلبه مال أبيه، ولا حق له في الاعتراض، فلم يكن ممن يحملون السيف حين موت الأب، وإذا كان هذا حال الذكر الذي يحتفون به من صغره، ويربونه على أنه بطل المستقبل، فما بالك بالأنثى، لقد كانت أسوأ حالا، هذا إن نجت من الوأد أصلاً، فلن يكون لها مال تعيش به، ولا ينكحها أحد إلا بمال تتجهز به، وبالتالي فإن الوصي يعتبرها عبئًاعليه، أو من جملة الميراث، فيزوجها لأحد أبنائه أو يتزوجها بنفسه، ويبخسها حقها في المهر.

وجاءت الآيات القرآنية التي تتحدث عن أحكام الأيتام تظهر لنا جوانب كبيرة من هذا الظلم الجاهلي بأبشع صوره قسوة وإيلامًا، وتنعي على هذا المجتمع تلك القسوة الشديدة تجاه اليتامى، بل توقظ ضمائرهم التي كادت أن تموت بالكلية، وتنفخ فيهم روجًا جديدة، ومن ذلك قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** (الفجر:17-20).

فهذه الآية -كما ترى- يذم الله -عز وجل- فيها أخلاق المجتمع العربي قبل البعثة، ويصفهم بأنهم يتبارون في أكل مال اليتيم، بهذه الفرية الساقطة، ويحرمونه من الميراث، لمجرد كونه ضعيفًا لا يقوى على القتال.

(1) تفسير الطبري تحقيق العلامة أحمد شاكر، ط مؤسسة الرسالة 1420 هـ. 7/ 31.

ومن هنا فإن الله –عز وجل– عد من أخبث صفات الكفرة، وأشدها قسوة وصلفًا، أنهم لا يكرمون اليتيم، فقال تعالى:{**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**}(الماعون:1– 3).

وسوف نتعرض في الصفحات القادمة لكثير من الصور غير الإنسانية التي كان يمارسها الجاهليون في أكل أموال اليتامى.

السيرة الذاتية لخير الأنام:

- هو أبو القاسم ، محمد صلى الله عليه وسلم(53 ق.هـ-11هـ/571-633م) ابن عبدالله(81 ق.هـ-53 ق.هـ/544-571 م) ابن عبدالمطلب(127ق.هـ-45 ق.هـ/500-579م) ابن هاشم..من قريش، يتصل نسبه الشريف إلى عدنان ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام..وأمه: آمنة بنت وهب(45 ق.هـ/575م) القرشية الزُهرية.
- ولد في بيت أبيه بمكة المكرمة ، في يوم الاثنين (9 ربيع الأول سنة 53 ق.هـ/20 إبريل سنة 571 م)..وقد أرضعته – بالبادية – حليمة السعدية- رضي الله عنها –(ت:8هـ/629 م) ، من بني سعد بن بكر بن هوزان.
- نشأ محمد بن عبدالله يتيمًا ، فلقد مات أبوه عبد الله قبل أن يولد ، فاحتضنته أمه آمنة إلى توفيت ، وهو في السادسة من عمره ، فكفله جده عبد المطلب ، إلى أن مات – وهو في الثامنة من عمره- فكفله عمه أبو طالب (85 ق.هـ-3 ق.هـ/540-620م).
- شب اليتيم الهاشمي كامل العقل ، عالي الهمة ، صادقًا، أمينًا ، شجاعًا ، فاضل الأخلاق، حتى لقبته قبائل قريش بـ"الصادق الأمين".. شارك أعمامه وأنبل لهم في حرب الفجار..كما شارك في عقد " حلف الفضول " الذي قام – بمكة – لنصرة المظلومين ، وأخذ حقوق الضعفاء من الأقوياء.
- اشتغل اليتيم الهاشمي برعي الغنم حينًا ، ثم بالتجارة ، وسافر إلى الشام مع عمه في تجارة قومه ثم سافر في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية(68 ق.هـ-3 ق.هـ/556-620م).
- وفي الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة خديجة – رضي الله عنها – وأنجب منها كل أولاده باستثناء إبراهيم الذي مات طفلاً – وظلت خديجة زوجه

الوحيدة حتى توفيت – وهو في الخمسين من عمره – سنة (3 ق.هـ/620م) ، فتعددت – بعدها – زوجاته.

- لم يعش بعده من أولاده ، وينجب سوى ابنته فاطمة (18 ق.هـ-11هـ/605-632م) التي تزوجت من ابن عمه علي بن أبي طالب(23 ق.هـ-40 هـ/600-661م)، فكان نسلها من ولديها:الحسن بن علي(3 – 50 هـ/624-670 م) والحسين بن علي (4- 61 هـ/625-680 م)..على حين توفي بقية أولاده – في حياته: القاسم ، وعبدالله و زينب ، ورقية ، و أم كلثوم ، وإبراهيم.
- لم يعبد اليتيم الهاشمي صنمًا منذ نشأ ، وكان يميل إلى التأمل ، ثم أخذ يخلو إلى نفسه شهر رمضان من كل عام ، في غار حراء – بمكة – يتعبد فيه تعبد الحنفاء ببقايا شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.
- وبينما هو بالغار في رمضان سنة (13 ق.هـ/610 م) جاءه الوحي من الله بالنبوة الخاتمة ، والرسالة الخالدة فأخذ يدعو المقربين – بالحكمة والموعظة الحسن – إلى الإسلام – سرًا ، ثلاث سنوات – فآمن به نفر قليل ، ثم جهر بالدعوة إلى الإسلام.
- أنزل الله عليه القرآن منجمًا (مفرقًا) ، وكان كُتاب الوحي يكتبونه و يحفظونه ، وهو معجزته التي تحدى بها قومه ، والإنس والجن أن يأتوا بمثله . فهو كتاب لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه مُيسر لذكر محفوظ من الزيغ .
- أصابه الأذى – هو وصحابته الكرام – من مشركي قريش وملإها وأغنيائها ، فصبروا وصابروا ، وحاصرته قريش مع من آمن به – في شعب بني هاشم ثلاث سنوات ، وقاطعوهم اقتصاديًا واجتماعيًا ، حتى كادوا أن يهلكوا جوعًا ، فأذن لبعض أصحابه – من الرجال والنساء – بالهجرة مرتين إلى الحبشة [1].

(1)محمد صلى الله عليه وسلم..المصطفى المعصوم..بشر يوحى إليه ، لمحمد عمارة،هدية كبار العلماء ، ربيع 1441هـ/نوفمبر 2019م،ص19-21 بتصرف.

- ويكشف رفض قريش لدعوته صلى الله عليه وسلم صورة من صور تدني منزلة اليتيم عند أهل مكة، فقد روى ابن عباس أن الكفار، قالوا لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم: "إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، وقالوا: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب، فنزلت: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا} (يونس:2) يعني أهل مكة[1]..و هناك موقف آخر يدل على هذه النظرة الجاهلية السقيمة نفسها من نفوس كبراء المجتمع القرشي، فقد طاف أبو جهل ومعه الوليد بن المغيرة ليلة بالبيت، فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق فقال له: مه وما دلّك على ذلك ؟ قال: يا أبا عبد شمس كنا نسميه في صباه الصادق الأمين فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة؟ واللات والعزى إنِ اتَّبَعْتُهُ أبدًا"[2]،وتلك النظرة الجاهلة ناشئة عن فرط قصورهم في التفكير، وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة، وقد كان أَكثر رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – خفاف الحال في شئون الدنيا، ثقال الموازين في الشرف وطيب المحتد، وكان صلى الله عليه وسلم واسطة عقدهم في جلائل الأَخلاق وشرف المنبع، فقد كان من أَعز أرومة في الجزيرة العربية[3]..يقول الإمام السرخسي معلقًا على قولهم يتيم أبي طالب: "والذي روي أن الكفار كانوا يسمون رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيم أبي طالب بعد المبعث قد كانوا يقصدون الاستخفاف به، لا أنه في الحال يتيم، قيل هذا لطف من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يشتمون يتيمًا وهو لم يكن يتيما، ولا تتناوله

(1)تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، 1965م.6/ 306.

(2) تفسير القرطبي 16/ 170.

(3) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية 4/ 47.

تلك الشتمة، كما روي أنهم كانوا يسمونه مذمما ويشتمون مذممًا، وهو كان محمدًا صلى الله عليه وسلم فلا تتناوله تلك الشتمة فهذا مثله"[1].

- وأخذ النبي الهاشمي يعرض نفسه ، ودعوته على قبائل العرب طلبًا للحماية ، والإيمان وكسرًا للحصار ..ولما استجاب نفر من يثرب " المدينة المنورة " من قبيلتي الأوس والخزرج لدعوة الإسلام سنة (2 ق.هـ) ، ثم عادوا في العام التالي سنة(1 ق.هـ) ، فتبايعوا وتعاقدوا معه – عند العقبة – على تأسيس الدولة الإسلامية الأولى – بالمدينة – بدأ أصحابه في الهجرة إليها.
- هاجر بصحبة أبي بكر الصديق (51 ق.هـ –13 هـ/573 – 634 م) – من مكة إلى المدينة ، فدخلها يوم الاثنين (8 ربيع الأول سنة 1 هـ/ 20 سبتمبر سنة 622 م) ، فأقام مسجد النبوة ، ووضع " الصحيفة – الكتاب " دستورًا للدولة الإسلامية الأولى.
- ولاحقته قريش – في مهجره – بالعداء ، والعدوان ، فأذن الله – سبحانه وتعالى – بالقتال دفاعًا عن حرية العقيدة والدعوة ، ودفاعًا عن وطن الإسلام ودعوته.
- وفي سبيل حماية الدين ، والدولة ، وتحرير الشرق من استعمار الرومان وقهرهم ، كانت غزواته الثمانية والعشرون ، وبها انتصر الإسلام على الشرك والوثنية ، وعلى تحالف اليهود مع الوثنية ، وتوحد العرب في دولتهم الإسلامية – لأول مرة في التاريخ – ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، وبدأت الدعوة الإسلامية تتعدى شبه الجزيرة العربية إلى ما جاورها ، ولم يتجاوز ضحايا كل تلك الغزوات – التي أعقبتها كل تلك الانتصارات – (386 قتيلاً) هم كل شهداء المسلمين وقتلى المشركين.

(1)المبسوط للسرخسي، مطبعة السعادة، ط1، مصر، 3/10.

- وفي (25 ذي القعدة سنة 10 هـ/ فبراير سنة 632 م) خرج حاجًا حجة الوداع ، وخطب – على عرفات – أطول خطبه ، التي قنن فيه الحقوق المدنية ، والدينية للإنسانية جمعاء ، ثم عاد إلى المدينة المنورة.
- وفي (27 صفر سنة 11 هـ/مايو سنة 632 م) كان مرضه الذي توفى فيه ، فصعدت روحه روحة الطاهرة الزكية المطمئنة إلى بارئها في (يوم الأحد 12 ربيع الأول سنة 11 هـ/ 7 يونيه سنة 632 م) ، بعد عمر بلغ – بالتقويم القمري – (63) عامًا وثلاثة أيام ، وبالتقويم الشمسي (61) عمًا ، وثمانية وأربعين يومًا.
- كان اليتيم الهاشمي خطيبًا ، أوتي جوامع الكلم ، إذا خطب – في نهي أو زجر – أحمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد عضبه ، كأنه منذر بقتال ، وإذا خطب في الحرب اعتمد على قوس ، وإذا خطب في السلم اعتمد على عصا..وكان محدثًا ، حلو المنطق ، في كلامه ترتيل وترسيل ، وإذا تكلم تبسم.
- وكان متواضعًا ، يجلس ويأكل على الأرض ، ويخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم أهله ، ويلبي دعوة الفقير والرقيق إلى خبز الشعير ، ويجالس المساكين.
- وكان طويل الصمت ، قليل الضحك ، إذا ضحك وضع يده على فمه ، يمزح – قليلاً – ولا يقول إلا حقًا ، وإذا مزح غض بصره..وكان شديد الحياء إذا صافحه أحد لا يترك يده حتى يكون المصافح هو الذي يترك يده.
- ضخم الرأس ، واليدين ، والقدمين ، رَبْعة – ليس بالطويل ولا بالقصير – واسع الجبين ، وسبط الشعر (مرسله) ، في وجهه تدوير ، وميل إلى الحمرة ، كث اللحية ، عظيم الفم ، في أسنانه تفليج وتفريق ، عيناه سوداوان ، يرسل شعره إلى أنصاف أذنيه ، أسمر اللون ، ضخم رءوس العظام يلبس قلنسوة بيضاء ،

ويمسح رأسه ولحيته بالمسك..كان إذا مشى لم يلتفت ، وإذا التفت التفت جميعًا ، يتكفأ في مشيته كأنما ينحدر من عَلٍ ، وأذا اهتم لأمرٍ أكثر من مس لحيته.

- وكان اليتيم الهاشمي شجاعًا بطلاً ، إذا حمى وطيس الحرب احتمى به أصحابه ، وإذا اشتد بأسها كان أقرب أصحابه إلى الأعداء.
- كان يطول يقوم الليل- يعبد ربه – حتى تتورم قدماه ..كان رفيقًا بالإنسان والحيوان ، والنبات ، والجماد..وكان عاشقًا للجمال في الكون ، والطيب ، لا يصد نفسه عن طيبات الحياة وزينتها.
- وكان – وهو المعصوم في التبليغ عن ربه – أكثر الناس مشورة لأصحابه يُخْضِع اجتهاده لاجتهادات الأغلبية ، وإذا عزم غزوة أخفاها ، وورى بغيرها[1].
- وصف نفسه فقال:" أدَّبني ربِّي فأحْسَنَ تأديبي "[2]..وصفته زوجته عائشة – رضي الله عنها – (9 ق.هـ -58 هـ/613 -678 م) فقالت:" كَانَ خُلُقُه القُرآنَ " [3]..وصفه ربه – سبحانه وتعالى {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}(القلم:4).

وصدق الله العظيم ، وصلى عليه الله وسلم ، والملائكة ، والمؤمنون إلى يوم الدين.

---

(1) محمد صلى الله عليه وسلم المصطفى المعصوم،لمحمد عمارة ،ص21-25،بتصرف.

(2) الفوائد المجموعة، للشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت: 1416هـ- 1995م، حديث رقم (1020).

(3)المسند، أحمد بن حنبل، المكتب الاسلامي، بيروت ، حديث رقم (24601).

لماذا ولد محمد بن عبد الله يتيمًا؟:

إن يُتم النبي صلى الله عليه وسلم خاصية بارزة في حياته، وهي خاصية جديرة بالتأمل، استنباطًا لأسرار إلهية، وحكم ربانية يستهدي بها المسلمون عامة ومن انبرى لمشروع انبعاث الأمة استشرافًا لموعود الله ورسوله أن بعد قرون الوهن والانكسار التاريخي للمسلمين سيبزغ فجر العزة ويشع نور الحق والإيمان ليعم العالم بأسره.. لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة، لعل من أهمها:

1 – **بناء الشخصية:** إن اليُتم في حد ذاته محنة لكل يتيم، ولكن الله سبحانه أراد أن تكون في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم منحة تضيف عاملاً من عوامل تشكيل شخصيته صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن تتحقق إلا إن كان يتيمًا؛ لأن اليتيم وإن توفرت له أسباب الرعاية يبقى يتيمًا، ومن المؤكد أن الابتلاءات التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا ما هي إلا اختبارات له في هذه الحياة، قال تعالى: **{وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}** (الأنبياء: 35)، ونجاح الإنسان في الاختبار يعني حصوله على خبرات جديدة سيستفيد منها؛ فتتحول المحنة إلى منحة، بما تتضمن من ملكات تصقل الشخصية وتقويها.

ويمكن القول هنا: إن ادراك الإنسان لضرورات البقاء في الحياة دون الاعتماد المباشر على غيره سبب مهم في صقل الشخصية الإنسانية وصيانتها فلن تصفو الحياة من كدر فعليه أن يصبر في الضراء وأن يشكر في السراء، لأن الإنسان إن ضجر فقد يجنح إلى ترك ما يصبو إليه من نبل، وإن من أسباب وقاية الشخصية من الانحراف "أن يستذكر الإنسان أنه في هذه الدنيا مبتلى"[1].

2 – أن يكون الفضل عليه لله وحده: وذلك كي لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما رضع

---

(1)القول المبين في سيرة سيد المرسلين: لمحمد الطيب النجار، دار اللواء، الرياض،1401هـ–1981م ، ص81.

لبان دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده. هكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيما، تتولاه عناية الله وحدها[1]. وقد أشار البوصيري –رحمه الله– إلى هذا المعنى بقوله:

كفاك بالعلم فى الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

لقد اقتضت العناية الإلهية أن ينشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمًا، ينتقل من كفالة لأخرى قبل النبوة، حتى إذا بُعث وخاض غمار الدعوة وواجه طوفان الشرك توفي عمه وزوجه خديجة رضي الله عنها في السنة نفسها، ليفقد صلى الله عليه وسلم كل سند اجتماعي، فقد كانت خديجة رضي الله عنها . كما قال ابن هشام ـ وزير صدق عن الإسلام، يشكو الرسول إليها ويجد عندها أنسه وسلواه. أما أبو طالب، فقد كان عضدًا وحرزًا في أمره... فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع له في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا. ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: لا تبك يا بنية فإن الله مانع أباك[2].

3 – الصناعة الإلهية: مما سبق يتضح بجلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم شأنه شأن جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، اصطفاء رباني وصناعة إلهية خالصة مصداقا لقوله تعالى في حق سيدنا موسى عليه السلام: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي}** (طه: 39)، وقوله جل جلاله: **{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}** (طه: 41)، فهذا تدبير إلهي خاص لمهمة خاصة جدا، التبليغ عن الله، والدلالة عن الله بالحال قبل المقال.

(1) فقه السيرة النبوية لمحمد رمضان البوطي،،دار الفكر، ط11، دمشق:1991م.ص: 45،46.

(2) المرجع نفسه، ص: 97.

ويتضح من ذلك أن يُتم النبي صلى الله عليه وسلم جزء لا يتجزأ من الرعاية الإلهية له قبل البعثة، فليس من باب الصدفة أن يولد يتيما وإنما أراد أن يكون ذلك جزء من تشكيل شخصيته ليكون مؤهلا لحمل النبوة من جهة ومؤهلا لقيادة الأمة ورعاية الإنسانية فيعطف على الفقير ويتفقد الأيتام ويتلمس حاجات الرعية ويساهم في تحقيق السلم العالمي والمجتمعي.

يقول المستشرق مونتجمري وات **(Montgomery Watt)**: "يمكن أن نستنتج من هذه الآيات: أن إحدى مراحل تفتحه كانت إدراكه أن يد الله قد أخذت بيده بالرغم من مصائب الدهر"[1].

ومن جهة أخرى، لو أن أبا طالب بقي إلى جانب ابن أخيه، يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية في المدينة، وريثما ينجو الرسول صلى الله عليه وسم من أذى المشركين وقبضتهم، لكان في ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان وراء هذه الدعوة، وأنه هو الذي كان يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه[2]، واتخذت الدعوة طابعًا عشائريًا يؤصل لتوريث الحكم الذي ابتلي به المسلمون منذ العهد الأموي.

4 – أن يكون قدوة في الاعتماد على الله وحده: إن نشأة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتمه وحرمانه من أي سند اجتماعي مثال حي، ودرس تطبيقي لما يجب أن تكون عليه الدعوة الإسلامية في كل زمان من اعتماد كلي على الله تعالى وحده، ويقين راسخ لا يتزعزع في أنه سبحانه هو الحافظ المسدد المؤيد متى كان المنهاج التربوي لصف الدعوة نبويًا، واستحق المنبرون لها وسام "عباد الله" واستوفوا مقتضيات العبودية الحقة لله أفرادا وجماعة، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قال: "**مَن عادَى لي وليًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به،**

(1) مونتجمري وات: محمد في مكة. ترجمة: شعبان بركات. القاهرة: المكتبة المصرية (د. ت) ،ص75.
(2) فقه السيرة النبوية،للبوطي، ص: 97.

وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بـه، ويَدَهُ الَّتـي يَبْطِشُ بهـا، ورِجْلَـهُ الَّتـي يَمْشِـي بهـا، وإنْ سَأَلَنِـي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ"[1].

وفـي هذا درس بليـغ يتمثل فـي تجنـب أبنـاء الدعوة اليوم العلاقات المشبوهة مـع القوى الأجنبيـة حفاظـا علـى نقـاء العمـل الإسـلامي وتفاديـا للخطـاب التخويني التآمري الذي يجيده خصوم الإسلام ويتفننون في تخريج رواياته، وكيف يربطون أي ظهور أو نصـر للإسـلام بقوى أو مؤسسـات داعمـة، حتـى لا تتقد شـعلة الثقـة والأمـل فـي قلـوب الشباب المتعطش لدينـه، وأبرز مثال ما راج من تفسيرات لانتصـار الجهاد الإسـلامي ضد الدب الروسي بأفغانستان الجريحة اليوم.

5 – الرحمـة باليتـامى: استقامة الرجل تتم عبـر ابـتلاءات متتاليـة وأكثـر النـاس بـلاءً هم المصـطفون الأخيـار وهـم أنبيـاء الله ورسـله، النبـي صـلى الله عليـه وسلم هذا اليتيم عبر الله عنه بأنه رحمه لماذا؟

إن فـي تحمل محمد بن عبدالله لآلام اليتم أو العيش، وهو فـي صـغره جعلـه أكثـر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلـة، وامتلاءً بـالعواطف الرحيمـة نحـو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين، وأكثـر عمـلاً لإنصـاف هذه الفئـات والبـر بهـا والرحمـة لهـا، وكـل داعيـة يحتـاج لأن يكـون لديـه رصـيد كبيـر مـن العواطـف الإنسـانية النبيلـة التـي تجعلـه يشـعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيدَ شيءٌ مثلُ أن يعاني في حياته بعض ما يعانيه أولئك المستضعفون كاليتامى والفقراء والمساكين.

إن أثر ذلك اليتم كان واضحًا في شخصية النبي من رقة ولين وعطف على اليتيم وإعانـة للفقيـر والمسكين مـن النـاس حتـى قبـل بعثتـه لقد وصـفت خديجـة النبـي عليـه السـلام بأوصـاف، فقالـت: "**إِنَّـكَ لَتَصِـلُ الـرَّحِمَ وَتَحْمِـلُ الْكَـلَّ وَتَكْسِـبُ الْمَعْـدُومَ وَتَقْـرِي الضَّـيْفَ وَتعُـينُ علـى نَوَائِـبِ الْحَـقِ**"، حتـى تأهلت هذه الشخصية لحمل الرسالة قال

(1) البخاري، حديث رقم (6502) .

تعالى: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}** (التوبة: 128).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ إِيَّاهَا, قُلْتُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ قَبْلِي رُسُلٌ، مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحيِي الْمَوْتَى، وَمِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟، قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟، أَلَمْ أَضَعْ عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ, قَالَ: فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ**"[1].

لقد عرف المفكرون حتى المستشرقون منهم أثر يُتم النبي صلى الله عليه وسلم في تشكيل شخصيته، يقول جيمس متشنر **(james Michener)**: "إن محمداً هذا الرجل الملهم، الذي أقام الإسلام، ولد يتيمًا محبًا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكمًا بأمره، أو قديسًا، ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله إلى العالم منذراً وبشيرًا"[2].

فما انتقم رسول الله صلى الله علية وسلم لنفسه يوماً، حتى آذاه قومه وكيف فعل به أهل مكة به وأصحابه فهذا اليتم رحمة للنبي صلى الله عليه وسلم ورحمة للعالمين، فكان يعفوا عن شاتمه بابتسامة فكان من أعظم حسنات النبي صلى الله عليه وسلم إنسانيته التي لا يمكن أن تماثلها أي إنسانية لأحد من البشر.

---

(1) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، صهيب عبد الجبار، 22/ 210، نسخة إلكترونية خاصة بالمكتبة الشاملة.

(2) نقلاً عن: قالوا في الإسلام، لحسن الشيخ خضر الظالمي: دار الكتاب العربي، القاهرة: (د. ت) ص،50.

وكل من قرأ سيرته الزكية وسنته الشريفة يجد عجبًا في سعة صدر النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحاب الخطايا والمذنبين، وإحساسه بآلامهم، وهذا موضوع كبير له مؤلفات خاصة به، كما أن القارئ لسيرته النبي الكريم سوف يجد أيضًا عناية فائقة باليتامى والضعفاء والمعوزين، حتى قال صلى الله عليه وسلم[1]: "**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ**".

فهذه التجربة سبكت النبي صلى الله عليه وسلم فكان نسيج وحده في الرأفة والرحمة، فقد أذهبت عنه جفاء العرب قبل الإسلام، وأصبح بهذه الرقة والسلوك عنوانًا للأخلاق الحسنة في كل زمان ومكان، فما انتقم رسول الله صلى الله علية وسلم لنفسه يومًا، ولا ثارت ثائرته على إنسان بسبب سب أو شتم، ولكنه يغضب عندما تنتهك حدود الله فقط، حتى عندما آذاه قومه، ونكلوا بأصحابه، فكان يقول: "**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**"[2].

وانظر إلى رحمته بأمته وهو يعفو عن إيذائها الشديد له فيما يرويه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "**هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ**[3]: " **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**".

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم (2739) .

(2) رواه البخاري، حديث رقم (3477) .

(3) رواه البخاري، حديث رقم (3231) .

فهذا اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم كان رحمة للعالمين، يعفو عن شاتمه، ويتعامل مع أعدائه من المجتمع القرشي وغيره، بأخلاقه العظيمة وإنسانيته السامية، تلك الإنسانية التي لا يمكن أن يماثلها بشر مهما بلغ من العظمة. وكانت هذه الرحمة والرأفة التي فاقت نظائرها عند جميع البشر سببًا مباشرًا في إسلام الكثير من الناس، والإيمان به رسولا من عند الله .. إن سيرة نبي الإسلام تخبرنا أنه صنع ذلك مرارًا، ولم يعف عن هؤلاء المغتالين والسبابين ويتركهم وشأنهم فقط، بل أمر بالإحسان إليهم، وعدم التعرض لهم؛ مما أثار دهشة أصحابه في عفوه ورحمته، ولو كان النبي الكريم ممن ينتقم لنفسه، لكان أول شيء فكر فيه بعد محاولة الاغتيال أو التطاول العلني هو القتل العلني لهؤلاء، حتى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه التطاول على مقام النبوة، وهو إن فعل ذلك فلن يلومه أحد، بل إن عفوه في هذه المواضع لهو محل الاستغراب وسبب الدهشة..ولكن هذه الدهشة تزول عندما نعلم أن تلك الأخلاق السامية أثرت في قلوب هؤلاء المغتالين وأسلموا لله رب العالمين بسبب ذلك؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه أخلاق بشر عادي بل رسول كريم من عند الله تعالى.

ولا عجب بعد ذلك أن يصل حب النبي الكريم للفقراء والمساكين أنه كان يعيش حياة الفقراء والمساكين طيلة حياته طائعًا مختارًا، بل كان يدعو الله –عز وجل– أن يكون مع المساكين في الدنيا والآخرة، فكان النبي الكريم يكثر أن يقول في دعائه[1]: "**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**".

وقد أثرت هذه الحياة الزاهدة على أهله رضوان الله عليهم أجمعين، فيحكي مسروق عن السيدة عائشة رضي الله عنها، فيقول[2]: "**دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَدَعَتْ لِي بِطَعَامٍ وَقَالَتْ: «مَا أَشْبَعُ مِنْ طَعَامٍ فَأَشَاءُ أَنْ أَبْكِيَ إِلَّا بَكَيْتُ» قَالَ: قُلْتُ لِمَ؟ قَالَتْ: «أَذْكُرُ الحَالَ الَّتِي فَارَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدُّنْيَا، وَاللَّهِ مَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ مَرَّتَيْنِ فِي يَوْمٍ**".

---

(1) رواه الترمذي برقم (2352) .

(2) رواه الترمذي برقم (2356) ، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

ومن هنا فإننا نرى ضرورة التنبيه على خطأ من يربط اليتم بالفقر، فعائلة النبي عائلة من سادات المجتمع القرشي، وكانت تحظى بالرئاسة الدينية ودورًا رياديًا في المجتمع، فيمكن أن نقول أنها من الطبقات القيادية في مجتمع مكة، ونالت هذا الشرف بالذكاء والحنكة والصدق، ومن هنا فهذه العائلات يحظى أبنائها برعاية منهجية لا تعتمد بالأصل على وجود الأب فحسب، فالنبي وإن كان يتيمًا إلا أن اليتم جعل له شخصية جامعة وذلك بتخالطه مع أعمامه الذين كانوا له بمثابة الأب والمربي.

الإصلاح يبدأ من الداخل:

إن الإصلاح الحقيقي كما يراه نبي الإسلام هو أن يبدأ المسلم من داخل نفسه ووجدانه، وداخل أهل بيته، وداخل أصحابه طارحًا الشعار القرآني الكريم: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}** (الرعد:11). أي أن التغيير ينطلق من داخل المسلم ويتوقف عليه، وأهم شيء أن ينشغل بنفسه ويصلحها، فذاته أولى بالإصلاح من أن ينشغل بإصلاح غيرها، فمجرد كونه صالحًا مع ذاته بحد ذاته إصلاح لغيره ، الذي قد يراه قدوة له انطلاقا من تصرفاته السوية، وإصلاح الآخرين يبدأ من إصلاح ذاته، فلا يمكن للذي يعجز عن إصلاح نفسه والارتقاء بها أن يصلح غيره أبدا، فالعاجز الحقيقي من جهل نفسه وعجز عن إصلاحها، ومن عرف كيف يتحكم في ذاته صار أعرف لغيره، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع ذاته كان ضمنيًا غير قادر على التأثير في سلوك الآخرين إيجابيًا، وخلاصة هذا كله أن إصلاح الآخر يكون نتيجة لإصلاح الذات، ولا يمكن تحقيق العكس أَبداً؛ فكيف يصلح الإنسان غيره ما لم يقوى على إصلاح نفسه؟! فالسراج الذي لا يضيء ما بقربه لا يمكن له أن يضيء ما يبعد عنه.

وبناء على ما سبق؛ فإن إصلاح النفس البشرية من الداخل هو القاعدة الأولى لتغلب الخير في الحياة، فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق، وكان عمل الخير مجرد رياء وسمعة لكسب الثناء الزائف، وابتغاء عرض من الدنيا قليل، وفي هذا فساد للحياة برمتها، وسيادة للفتن في حاضر الناس ومستقبلهم.

ويؤكد النبي الكريم على هذه القاعدة، ويرى أن أصعب أنواع الجهاد وأشقها على العبد هي أن يجاهد العبد نفسه، ويُخضعها نفسه لطاعة الله جل في علاه، ويبعدها عن الشهوات المحرمة، فهذا هو الجهاد الدائم مع العبد طوال حياته، لا ينفك عنه ما

دامت نفسه بين جنبيه، قال صلى الله عليه وسلم: "**الْمُجَاهِدُ من جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ اللَّهِ عز وجل**"[1].

ومن هذا المنطلق كان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام: يبيتون الليالي الطوال جائعين، يشدون الأحجار على بطونهم الخاوية من أجل أن تشبع أمة المسلمين.. كانوا في أيام الضنك والمجاعة لا يأكلون إلا ما يأكله سائر الناس كي يشعروا بشعورهم، ويتحسسوا تجربتهم، ويسرعون في إيجاد الحلول لبؤسهم وضنكم. فقد رأى النبي الكريم أنه لا قيمة لعبادة يضيع صاحبها حق يتيم؟! ولا قيمة لصالح قعد عن نصرة يتيم؟!! وما فائدة علوم ومعارف لم تنهض بصاحبها للشفقة على يتيم! أو مواساة ضعيف، أو إيثار منفعة المجتمع العامة على منفعته الشخصية، وما فائدة تنسك لا يدفع صاحبه إلى حماية دين وعرض ومال اليتيم؟

إن الصلاح الحقيقي هو الذي يولّد في القلب شفقة على اليتيم وكل عباد الله، وتدفع صاحبها إلى حمل هم اليتيم وكل أفراد الأمة والانشغال بإصلاح أحوالهم، والسعي في قضاء حوائجهم الذي هو أعظم أجرًا من الاعتكاف في المسجد النبوي، يقول صلى الله عليه وسلم: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [2].

محفزات الكفالة:

لقد سعى نبي الإسلام منذ بداية أمره، إلى وضع معالم لما يمكن أن يسمى بمصطلحات العصر، نظرية أخلاقية في مجال رعاية الأيتام، وهذا ظاهر من خلال الأقوال والممارسات التي صدرت عن النبي الكريم ، فقد جعل نبي الإسلام قضية اليتيم شريعة لازمة وباباً واسعاً من أبواب العبادة في هذا الدين فلا صلاة، ولا صيام، ولا حج ولا زكاة، ولا جهاد ولا عمل أرجى ولا أعظم ولا أعلى درجة من إعانة اليتيم والضعيف

(1) صحيح ابن حبان ،مؤسسة الرسالة،ط1، بيروت: 1408هـ/ 1988م ، حديث رقم (4624) .
(2) البخاري برقم (2442) .

والأرملة والمسكين.. فيقول صلى الله عليه وسلم: "**مَنْ عَالَ ثَلَاثَةً مِنَ الْأَيْتَامِ, كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ, وَصَامَ نَهَارَهُ, وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِرًا سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ, وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ أَخَوَيْنِ كَهَاتَيْنِ أُخْتَانِ", وَأَلْصَقَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى**"[1].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ**"[2].

فأين الرجل الذي يقوم الليل ويصوم النهار ويجاهد في سبيل الله، ولعل هذه الصفات لم توجد مجتمعة في خلال القرون السابقة إلا لطائفة مخصوصة من أتقياء الرجال وخلصائهم، وهذا الرجل الذي نذر نفسه للسعي في مصالح الأيتام والضعفاء يوازيهم في الأجر، ويشاركهم فيه.

بل إن هذا الكرم النبوي يتعدى هذه الخيرية الدنيوية إلى ضمان الجنة يوم القيامة؛ حيث يقول صلى الله عليه وسلم: "**ما من مسلمٍ قبَض يتيمًا بينَ مسلمينِ إلى طعامِه وشرابِه إلَّا أُدخِل الجنَّةَ ألبتةَ إلَّا أن يعمَلَ ذنبًا لا يُغفَرَ ومَن أُخِذَت كريمتاه فصبَر واحتسَب لم يكُنْ له ثوابٌ إلَّا الجنَّةُ**"[3]، ومعنى كلمة البتة: قطعاً بلا شك، والذنب الذي لا يغفر هو الشرك والكفر بالله تعالى، كما أوضحته الآية الكريمة: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}** (النساء: 48) فالجزاء من جنس العمل؛ ودار النعيم الأبدي في الجنة لمن فرح اليتيم في دار الدنيا، وكفله ورعاه.

لقد أكثر النبي الكريم من تذكير أصحابه بمنزلة رعاية اليتيم وكفالته، وأهميتها وثوابها وأجرها، والتأكيد على أنها ليست خلقاً تكميلياً جمالياً، بل هي خلق لازم واجب،

---

(1)سنن ابن ماجة: الحافظ أبو عبدالله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر ، برقم (3680) .

(2) رواه البخاري برقم (5353) .

(3)مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي ،3، بيروت: 1402هـ/1982م، ، 165/8.

فكان مما روي عنه صلى الله عليه وسلم في هذا المقام: "**خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ**"[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم: "**مَا قَعَدَ يَتِيمٌ عَلَى قَصْعَةِ قَوْمٍ فَيَقْرَبُ قَصْعَتَهُمُ الشَّيْطَانُ**"[2].. فالذي ليس عليه شيطان فإن عليه رحمه وعليه ملائكة؛ لأن النفوس مختلفة الطباع، متباينة الأمزجة، فربما زين الشيطان لمن كفل أبوه أو أمه يتيماً في البيت، أن الأجر خاص بالأب أو الأم – الكافل– أما باقي أفراد الأسرة فهم في حل من أمرهم وليس لهم علاقة بالرعاية الاجتماعية، أو المعاملة الإنسانية لليتيم فوضح النبي الكريم أنها مسئولية الجميع.. فجعل الخيرية كلها للبيت الذي كفل يتيماً فأكرموه وأحسنوا إليه، وجعل شر البيوت لمن اعتدى وأساء إلى اليتيم.

وورد عنه أيضًا: "**مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ..**"[3].

فبين النبي الكريم أن من يتكفل برعاية اليتيم، ويؤمن له لقمة عيش كريمة، ويوفر له حياة آمنة هنيئة، ليس له جزاء إلا الجنة.. فمن يرفض هذا الوعد الإلهي الذي أوجب الله فيه الجنة لكافل اليتيم؟!.

وإذا كانت الجنة درجات متفاضلة، وأعظم الدرجات درجات الأنبياء، وأعظمها على الإطلاق درجة النبي الكريم، ولأن النفوس دائماً تطمح لأعلى الدرجات، فقد جعل النبي الكريم كفالة اليتيم سبباً لمرافقته النبي في الجنة في أعلى درجاتها. فيقول صلى الله عليه وسلم: "**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**" **وَأَشَارَ الرَّاوِي –وهُو مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ– بِالسَّبَّابَةِ والْوُسْطى**"[4].

---

(1) سنن ابن ماجه برقم (3679) .

(2) معجم الطبراني، دار العربية، بغداد،1398هـ ، حديث رقم (7165) .

(3) أخرجه أحمد، حديث رقم (19025) .

(4) المسند، أحمد بن حنبل ، حديث رقم (2983) .

وهذا ما دفع العلامة ابن بطال أن يقول: "ليكون رفيق النبي . صلى الله عليه وسلم . في الجنة ، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك "[1].

وكما أن كفالة اليتيم تدخل الجنة فإنها تبعد عن النار يقول صلى الله عليه وسلم: " **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَلِي أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتِيمًا فَيُحْسِنُ وِلَايَتَهُ ثُمَّ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ شَعَرَةٍ حَسَنَةً، وَكَفَّ عَنْهُ بِكُلِّ شَعَرَةٍ سَيِّئَةً**"[2].

فقد وضع نبي الإسلام أفضل الدرجات للأرملة التي مات عنها زوجها وترك لها أطفالاً أيتام، وما ذلك إلا بفضل كفالة هؤلاء الأيتام؛ نظرًا لأن النساء ضعيفات في واقع الأمر، ولأن الحياة لا يرفرف عليها دائمًا علم الإيمان الذي يهدي الحيارى في ظلمات الحياة، والأرملة التي ترفض الزواج، وتقول أريد أن أُربّي ولدي بعيدًا عن ضغوط زوج الأم، وضيقه بأولادها؛ لأنه غالباً إذا تزوج الرجل امرأة لها أطفال فإنه يضيق ذرعاً بأطفالها، وكذلك الزوجة أيضاً تضيق ذرعاً بأولاد الرجل من غيرها، وهذه قضية شائكة تفتح الباب لكثير من التوتر والقلق داخل الأسرة.. لمثل هذه الأم المسكينة أو المنكوبة يأتي عزاء النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "**أنا أوَّلُ مَن يُفْتَحُ له بابُ الجنَّةِ، إلَّا أنِّي أرى امرأةً تُبادِرني، فأقولُ لها: ما لكِ؟ ومَن أنتِ؟ فتقولُ: أنا امرأةٌ قعَدْتُ على أيتامٍ لي**"[3].

إنه جزاء كبير؛ لأن التضحية كانت كبيرة، فهذه الأم ضحت بحياتها ومتعتها في الدنيا ، وكرست جهدها كله لأطفالها، رحمة بهم، وشفقة عليهم، وحسن تربيتهم ليكونوا أعضاء صالحين في المجتمع، فكان لهذا القلب الرحيم، وهذه التضحية الكبيرة ثواب عظيم عند الله تعالى، ونصيب كبير من رحمته وغفرانه، ولا عجب في ذلك فالنبي

---

(1)عون المعبود وحاشية ابن القيم ، العظيم آبادي، شرف الحق ، دار الكتب العلمية ،ط2، بيروت: 1415هـ ،45/14.

(2) الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي،الكتب العلمية ، بيروت، لبنان: 1418هـ1997م، 221/4.

(3) رواه أبو يعلي، حديث رقم (6651).

صلى الله عليه وسلم يقول[1]: "**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**". وبهذه الرحمة والتضحية استحقت أن تسابق النبي الكريم في الدخول إلى دار الرحمة والرضوان التي أعدها الله عز وجل لعباده الأبرار.

وثمة لمسة حانية نراها في نبي الإسلام وهو يوجه الناس، إلى مسألة قد تبدو جزئية، ولكنها ذات دلالة كبيرة، يقول صلى الله عليه وسلم: "**والَّذي بعثني بالحقِّ لا يعذِّبُ اللهُ يومَ القيامةِ من رحِم اليتيمَ ولان له في الكلامِ ورحِم يُتمَه وضعفَه..**"[2]..و اللين في الكلام، هو أول أبواب الإحسان إلي اليتيم، وهو يملكه كل واحد، فلا حجة لأحد في سوء الأدب مع اليتيم، ولا في إغضابه ومضايقته، فليس البر باليتيم يقتصر على بذل المال له، بل إن هناك ما هو أسمى من بذل المال، وهو الرعاية النفسية، ولين الكلام له، والرحمة به، والعطف عليه.

وأتى رجل للنبي الكريم يشكو قسوة قلبه فقال له صلى الله عليه وسلم: "**إنْ أردتَ تَليينَ قلبِكَ فأطعمِ المسكينَ وامسحْ رأسَ اليتيمِ**"[3]؛ فبث الحنان من خلال لمس اليد، من أكثر الأشياء الإنسانية التي يحتاج إليه اليتيم فضلاً عن الكفالة المالية والمادية.

وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "**أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ** ". **قَالَ: نَعَمْ. قَالَ:** "**ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَامْسَحْ بِرَأْسِهِ وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِنْ قَلْبُكَ وَتُدْرِكْ حَاجَتَكَ**".

إن هذا السائل قد علم داء نفسه، وبحث له عن علاج، فالمسلم يرغب دائمًا بالقرب من الله تعالى، ويخشى أن يكون من قساة القلوب البعيدين عن رحمته، وإذا ما شعر الإنسان يومًا ببعض القسوة في قلبه، كان لا بد له أن يبحث عن علاج يذهب به قسوة قلبه، فيرشده النبي الكريم إلى العلاج الناجع لهذا المرض، ألا وهو إكرام اليتامى

---

(1) رواه الترمذي برقم (1924).

(2) أخرجه الطبراني: المعجم الأوسط، حديث رقم (8828) .

(3) مسند أحمد برقم (7566) .

والمسح على رءوسهم، وإشراكهم في الطعام والشراب، إن بث الحنان من خلال تلك الحركات الإنسانية الرائعة براحة اليد على رأس اليتيم من أكثر الأشياء التي تعين على هذا الغرض؛ فضلاً عن آثارها العظمى في تهدئة اليتيم، وتسليته عن مسألة اليتم.

وينبغي أن نذكر القارئ الكريم هنا بأن صاحب هذا العمل لا يعمله رياء ولا نفاقًا، ولكنه ابتغاء مرضات الله ، لا يريد ثناء من البشر، ولا منفعة دنيوية من ورائه، فهذا هو من يحصد الحسنات حصدًا فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم قال[1]: "**مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ**".

وهذا التوجيه الذي ذكره النبي الكريم من مسح شعر اليتيم، هو الحد الذي لا يصعب على أحد، ويمكن أن يقوم به كل إنسان، فيشعر اليتيم بالحب والحنان، ثم هو يجلب له الحسنات، فيا لها من توجيهات تغرس كفالة اليتيم غرساً هادئاً ولطيفاً في النفوس، حين يحث الناس على أن يجلسوا الأيتام معهم ليأكلوا من الطعام الذي صنعوه، فإن تعذر هذا، فلا أقل من أن يعطي صاحب البيت اليتيم بعضاً من هذا الطعام، رحمةً به وجبراً لخاطره.

وبهذه الأقوال المترجمة إلى أفعال استطاع النبي الكريم أن يُحْيِي في القلوب كفالة اليتيم، ويحرر العقول من أسر التقاليد البالية التي ظلمت اليتيم، وجعل صلى الله عليه وسلم كفالته حلبة يتنافس فيها المتنافسون، والتعاون على البر باليتيم أساس لرضا الله، ثم وصل بين اليتيم وبين قلوب المسلمين بالمؤاخاة، حتى شعر اليتيم الضعيف أن جند الله قوته، وشعر اليتيم الفقير أن بيت المال ثروته!! و أن المؤمنين جميعًا إخوته.

معنى الكفالة وخطأ فهم الحديث:

الكفالة .. من فعل (كفل) : أي ضمن , ويقال كفل الرجل و بالرجل أي ضمنه..وكفل الصغير : أي ربّاه وأنفق عليه , كما قال جل وعلا {وكفّلها زكريا}.

---

(1) مسند أحمد، حديث رقم (22153) .

فالكفالة هي التربية و العناية بالصغير ماليًا و تربويًا ..وهذا هو خطأ المجتمع الإسلامي في فهم معنى كفالة اليتيم .. ففي قوله صلى الله عليه وسلم " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا " وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ..أي متقاربين في الجنة "[1].

يقول بن حجر في شرح الحديث[2]:" لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم أو منزلة النبي .. لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومعلمًا و مرشدًا , وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه , ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه , فظهرت مناسبة ذلك" ..

إن منزلة النبي صلى الله عليه وسلم هي أعلى منزلة ينالها مخلوق في الجنة..يقول صلى الله عليه وسلم " إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ "[3]..

فلا يتصور أبدًا أن كافل اليتيم تختزل كفالته في الشق المالي الذي هو الانفاق عليه بالتبرعات المادية و العينية وترك أهم جزء من الكفالة وهو تربيته على التوحيد وعلى منهج الله وسنة رسول الله وحفظ ماله واتقاء الله فيه وفي التصرف في ماله , فشتان بين هذا وذاك , ولا يتصور أن الحفلات الراقصة والغنائية التي تجمع التبرعات لهؤلاء وهي أبعد ما يكون عن منهج الله و رسوله هي التي تقرب هؤلاء زلفى من النبي صلى الله عليه و سلم , إذ كيف يتصور من ينفق على هؤلاء اليتامى واللقّط من حرام ثم يرجو جوار النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات الجنة ؟! هذا محال ويأباه الشرع والعقل .

---

(1) أخرجه البخاري، حديث رقم (6005) .

(2) في الفتح،616/10 .

(3) رواه مسلم، حديث رقم (577).

ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم :" أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا " وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئًا " يدل على شدة قرب المنزلة لكافل اليتيم من النبي صلى الله عليه وسلم , قال العلقمي في رواية " وفرج بينهما شيئًا " فيه إشارة إلى أن بين درجة النبي صلى الله عليه وسلم وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ..وفي رواية " كهاتين إذا اتقى " أي اتقى الله فيم يتعلق باليتيم , ويحتمل أن يكون المراد سرعة دخول الجنة و وعلو المرتبة[1].

لقد كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم تطبيقًا عمليًا وتجسيدًا وتحقيقًا للقرآن الكريم الذي وضح لنا كيف تكون كفالة اليتيم ، يقول تعالى يحكي عن السيدة مريم عليها السلام{ تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}(آل عمران:37)

قال بن كثير رحمه الله في تفسيره لهذا الآية : يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة وأنه أنبتها نباتًا حسنًا أي جعلها شكلاً مليحًا ومنظرًا بهيجًا و يسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عبادة تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} أي جعله كافلاً لها . قال بن إسحق : وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة .. ثم قال رحمه الله : وإنما قدّر الله كون زكريا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا .. ولأنه كان زوج خالتها "[2].

وهنا تكمن نكتة مهمة: وهي أن اليتيم (المكفول) يتأثر تأثرًا مباشرًا بكافله وبشخصية كافله ومما يأخذه منه , لأنه يعتبر المعوّض له عن الأب , و الأم أحيانا, فيكون بمثابة الحياة له أو لها..لذلك : من كانت كفالته بالمال فقط شبّ هذا اليتيم حبيبًا للمال , إلا من رحم الله !.. ومن كانت كفالته بسوء الأدب والتربية الفاسدة , شبّ هذا اليتيم كذلك !.. ومن كانت كفالته على كتاب الله وعلى سنة رسول الله , كان اليتيم على كتاب الله وعلى سنة رسول الله , وهذا هو كافل اليتيم الحق الذي ذكره رسول الله

---

(1)تفسير ابن كثير، 2/٤.

(2)عون المعبود ، العظيم آبادي، ٤١/١٤.

صلى الله عليه وسلم في الحديث , وإن لم يشبّ اليتيم صالحا , و لكن الكفيل كان حريصًا على ذلك فله الأجر لا شك إن شاء الله!

وتذكر السيرة النبوية للكفالة العامة , أن زيد بن حارثة الذي روي أنه لما كان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خيره رسول الله (ولاحظ أن ذلك قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيًا) بين أن يذهب مع والده أو أن يبقى معه .. فاختار البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن شئت فأقم عندي و إن شئت فانطلق مع أبيك " قال : بل أقم عندك !.. وهذه القصة رواها الطبراني والهيثمي حسّنها في المجمع وذكرها بن إسحاق في السيرة , ولا يخفى ما في ذلك .. فلأن زيد رأى من خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلق زوجته خديجه رضي الله عنها وتربى على يدي المصطفى و كان معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضا في المنزل .. فعلم أنه في بيت شريف ذو خلق رفيع لن يجد مثله فآثره على الرجوع مع أبوه , أي أحب أن يكون مولى في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون حرًا مع أبيه .

الثمار المبهرة:

بهذا المنهاج النبوي– إزاء كفالة اليتيم – قولاً وفعلاً استقر في القلوب الواعية، والنفوس الصافية للصحابة الكرام، أن كفالة اليتيم خلق واجب، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم من أصحابه بأن يبدو الإعجاب، أو التعجب من التزامه بالرحمة، ودعوته إليها، مع بقاء من شاء منهم على حاله، كما هو مسلك بعض العظماء والمصلحين.

وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يرى أصحابه، يمارسون كفالة اليتيم قولاً وعملاً، ويحملهم على التخلق بها، حملاً بشتى الوسائل، وهو ما يجعلنا نقول:إن من مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالناس أنه علمهم كفالة اليتيم والضعيف العاجز، وأعانهم على العمل بها، وحثهم على ممارستها في شؤون حياتهم.

لذا هب الصحابة رجالاً ونساءً رضوان الله عليهم للاقتداء بالنبي الكريم فها هي أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش زعيمة الآخذين بمناصرة الأيتام والفقراء والمساكين.. فكانت رضي الله عنها أجود نساء النبي صلى الله عليه وسلم وأبرهن باليتامى والمساكين، فقد كانت تصنع بيدها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين.. تقول عنها السيدة عائشة رضي عنها: "**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا، قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ**"[1]. وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز، وتتصدق في سبيل الله.

وهذه أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية رضي الله عنها فقد كانت كريمة خيّرة.. سُميت بـ"**أم المساكين**" لرحمتها إياهم ورقتها عليهم؛ وبذلك روي في سيرتها رضي الله عنها أنها كانت خير نسائه صلى الله عليه وسلم للمساكين[2].

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود.. "**خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، ثُمَّ انْصَرَفَ فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ جَاءَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ زَيْنَبُ، فَقَالَ: أَيُّ الزَّيَانِبِ، فَقِيلَ: امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: نَعَمْ ائْذَنُوا لَهَا، فَأُذِنَ لَهَا، قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ**

(1) رواه مسلم، حديث رقم (2452) .

(2) مصنف عبدالرزاق، تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الأولى ، حديث رقم (14000) .

وَوَلَدَهُ أَحَقٌّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ"[1].

وقد مدح صلى الله عليه وسلم نساء قريش لرعايتهن اليتامى: "**نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ، أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ**"[2]. فقد بَيَّن النبي الهاشمي فضائلَ نساء قريش التي اسْتَحْقَقْنَ بها أن يكُنَّ خير نساء العرب؛ فالفضيلة الأولى: أنهنَّ أشدُّ النساء حُنُوًّا على الأولاد، وأكثرهن عطْفًا عليهم، فلا يشغل القُرَشَّية عن العناية بأولادها ما يشغل غيرَها من الإسراف في اللهو والمتعة والزينة والتبرُّج.. والفضيلة الثانية: أنها إذا مات عنها زوجُها، حبَست نفسَها على تربية أولادها، فلا تتطلَّع لزوجٍ آخر، ولا تَدَع شهوتها تتغلَّب على رعايتها لهم وحُسْن القيام عليهم، حتى يشبُّوا ويستقلُّوا بأمورهم.. والفضيلة الثالثة، ما أجلَّها وأعظمَها! وهي المحافظة على مال زوجها، والاهتمام بما يُصلِحه ويُنَمِّيه، والمال عَصَبُ الحياة، وعماد المصالح، ووسيلة إلى رضوان الله تعالى إذا أُنفِق فيما يُرضِيه، ونِعْمَ المال الصالح للأسرة الصالحة في الدنيا والآخرة.

بهذه المكارم العُليا في كفالة ورعاية اليتيم كانت المرأة العربية القرشية، هي المثل الرائد، والقُدْوة الصالحة لبنات آدمَ وحواء عليهما السلام، وكانت بحقٍّ حَسَنةَ الدنيا، وبهجة الحياة، وذخيرةَ البيت الكريم في الأولى والآخرة.

وضرب الرجال من الصحابة رضي الله عليهم أجمعين في ذلك أروع الصور والأمثال، فقد تسابق علي بن أبي طالب وأخيه جعفرا، وزيد بن حارثة في كفالة ابنة حمزة بن عبد المطلب، ويروي لنا جانب من المشهد المشهد البراء بن عازب رضي الله عنه أنه فيقول: ".. **فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ، تُنادِي يا عَمِّ يا عَمِّ، فَتَنَاوَلَها عَلِيٌّ فأَخَذَ بيَدِها، وقالَ لِفاطِمَةَ عليها السَّلامُ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ حَمَلَتْها، فاخْتَصَمَ فيها عَلِيٌّ وزَيْدٌ وجَعْفَرٌ، قالَ عَلِيٌّ: أنا أَخَذْتُها، وهي بنْتُ عَمِّي، وقالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وخالَتُها**

(1) صحيح البخاري حديث رقم (1462) .

(2) صحيح البخاري حديث رقم: (3434) .

تَحْتِي، وقالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أخِي. فَقَضَى بها النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِخالَتِها، وقالَ: الخالَةُ بمَنْزِلَةِ الأُمِّ.."[1].

وعلى هذا الهدي النبوي – المفعم رحمةً وعطفاً – سار الصحابة رضي الله عنهم ، فكانوا يتبعون النبي الكريم ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن اتباعه هو خير الدنيا، والآخرة، وأنه لا مناص من اتباعه حتى يدخلوا الجنة، فهذا سيدنا عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما كان لا يجلس على طعام إلا على مائدته أيتام.

ومن هنا كانت جهود نبي الإسلام في محو آثار اليتم والفقر في شتى مجالات الحياة، إذ إن لليتم مرارة يعرف طعمها الطفل اليتيم؛ فيشعر في كثير من مواقف الحياة وصراعاته فيها بأن آماله قد دفنت مع أبيه في قبره، وأنه قد ضاع في هذه الحياة، وينساب الذل إلى قلبه الصغير، وكأن الزمن يخاطبه: انتهت أيامك أيها الطفل المسكين من الأب، وبدأت أيامك من الزمن الصعب.. وشاءت الحكمة الإلهية أن يذوق المنقذ الأول للإنسانية مرارة اليتم، ليكون خير مواسٍ لكل يتيم من أمته.

وشتان بين من يلتفت خلفه، وهو يسير ليطمئن على أتباعه واحداً واحداً، وهم يتبعونه، حتى لا يبتعد عنهم، أو ينفرهم منه، رحمة منه بهم، وهو يتمثل دور الوالد من أولاده لقد قالها لهم صراحة، لتطرق أسماعهم، "**إنما أنا لكم مثلُ الوالدِ أعلِّمُكم**"[2]، والوالد يرحم أولاده، ويحنو عليهم، ولا يسلمهم إلى المشاق. وبين من لا يلقي لهم بالاً ولا يرقب لهم حالاً، ويمضي في طريقه وحيداً، ليحقق لنفسه العظمة، والخلود، بهذا التميز، كما يتوهم، ولسان حاله يقول، من كان به قوة فليلحق، ومن كانت لديه همة فليصبر.

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم (4251) .

(2) رواه النسائي، حديث رقم (40) .

ونحن سوف نسير عبر ما تبقى لنا من صفحات هذا الكتاب لنرى كيف كانت وسائل اليتيم الهاشمي في إزالة آثار اليتم من النفوس والقلوب، في شتى مجالات الحياة، وميادينها العامة.

الميدان الاجتماعي

شاءت الحكمة الإلهية أن يذوق محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم المنقذ الأول للإنسانية مرارة اليتم ، ليكون خير مواسٍ لكل يتيم من أمته، وقد سُئل النبي الهاشمي صلى الله وسلم: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: "**نعم أنا يومئذ ابن ثمان سنوات**"[1].

وتلتقط لنا ذاكرة السيدة أم أيمن موقفًا إنسانيًّا تلقائيًّا للنبي اليتيم الهاشمي في هذه السن، تبكي له العين، فتقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ينتحي خلف سرير (نعش) عبد المطلب يبكي[2].. فتأمل هذا الطفل الذي ورث يُتماً بعد يُتم بعد يُتم ولم يبق له أحد إلا الله سبحانه وتعالى يبكي وينتحي خلف سرير جده.

يا يَتيمَاً واليُتْم ضَعْفٌ وعَجْزٌ كَيفَ ذلّت لضَعفِك الأقويَاء

لقد سلك القرآن طريقاً جديداً للوصول إلى بيان الحالة النفسية لليتيم، ذلك هو توجيه الخطاب إلى اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم متخذاً من الواقع المرير الذي مر به صلى الله عليه وسلم وهو طفل خير درس يوجهه إلى أفراد الأمة لرعاية هذه الزهور الذابلة.. ومن هذه النقطة سيكون المنطلق لمسيرة النبي الهاشمي مع الحملة التوجيهية لكفالة اليتيم.

الإيواء:

إيواء اليتيم بيت هو أول ما يحتاجه اليتيم في هذه الحياة فهو الحضن الذي يضمه، والصدر الذي يغمره بدفئه، والبيت الذي يمرح فيه، فإذا تهيأت هذه الثلاث كان بالامكان أن يحفظ هذا الطفل المهمل ليقوم بالانفاق عليه مادياً، ومعنوياً.. لذلك يبدأ القرآن الكريم بتذكير اليتيم الهاشمي بأولى مراحل احتياجاته وهو طفل يتيم، فيخاطبه بهذا الأسلوب الهادئ، قال تعالى: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ}** (الضحى: 6) لينقله إلى

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1/ 95.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ذلك الدور الذي مر عليه، أنت أيها اليتيم الهاشمي أحسست بهذا الشعور فأواك الله، وعطف عليك قلوب الحواضن، وإذا بجدك عبد المطلب يحتضنك فيوليك من حنانه ما يعوضك عن حنان الأبوة، ويوصي بك لعمك أبي طالب فيكفلك ويفضلك على أولاده وليكن بعد ذلك خير ساعد لك على دعوتك المقدسة ووسط هذا العطف تنعمت بما أنساك مرارة الوحدة الأبوية وذل اليتم.

فنراه صلى الله عليه وسلم يجعل هذه البيوت التي تضم اليتامى وترعاهم أفضل البيوت في المسلمين، فيقول صلى الله عليه وسلم: "**خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ**"[1].

نعم، إنه خير بيت؛ فالرحمة بالأطفال والضعفاء عامة وبالأيتام خاصة عاطفة إنسانيّة سامية، يكرم الله بها من شاء من عباده، لهَا مظاهرها وآثارها، وليست دعوى بغير برهان، فهي باب لاستنزال رحمة الله تعالى وفضله، فرحمة الأطفال ورحمة الله متلازمتان.

وجد النبي أن أفضل وسيلة لأيواء اليتيم هي أن ينضم إلى بيت يؤويه وأسره ترعاه وتحتوية، ويأكل مما تأكل ويكتسى قدر الاستطاعة، وتشجيعًا لهذا الأمر يقول صلى الله عليه وسلم: "**منْ ضم يتِيمًا بيْن أبويْنِ مُسْلِميْنِ إِلى طعامِهِ وشرابِهِ حتى يسْتغْنِي عنْهُ، وجبتْ لهُ الْجنةُ الْبتة**"[2].

وبدأ النبي الهاشمي بنفسه، فرعى مجموعة من الأيتام وضمهم إلى أسرته، عن طريق الزواج بأمهاتهم، فأصبحوا تحت رعايته المباشرة، فكانت أولى زوجاته أمًا لأيتام وهي السيدة خديجة رضي الله عنها، التي كان لها من زوجها الأول "عتيق" بنتًا، ومن زوجها الثاني "أبي هالة" ولدين، وكبر الأولاد في رعاية النبي الكريم، وصار منهم الصحابي الجليل هند بن أبي هالة.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه أحمد، حديث رقم (19025).

وها هو النبي صلى الله عليه وسلم يتزوج بأمنا السيدة أم سلمة رضي الله عنها لم يكن لمتاع مما يمتع الخيال به من حرارة في القلب, ولا بقية أثر من ميل النفس.. ولم يخترها عن ظُرف، ولا رقة، ولا عاطفة، ولا زلفى لأنوثتها فهي قد تجاوزت مرحلة الشباب، وهي أم لأربعة أيتام صغار، ولما علم النبي الكريم بانقضاء عدة أم سلمة رضي الله عنها أرسل إليها يخطبها ليكفلها وأولادها، وقال لها لما أرادت أن تعتذر إليه بغيرتها وكثرة صبيانها: "**أمَّا الغَيرةُ؛ فيُذهِبُها اللهُ، وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبَرُ منكِ، وأمَّا أيتامُكِ؛ فعلى اللهِ وعلى رسولِه..** "[1].

وتزوج أم سلمة ولها أربعة أطفال هم: سلمة، وبرة، وعمر، ودرة، ورعى أبناء هذه وتلك.. وشرع لنا علاج نفسية الطفل حين يرى القادم الجديد في حياة أمه، فقد عقد قران أم سلمة بوضع يده في يد سلمة الصغير، الذي قال له مازحًا: كم تعطي أمي من صداق؟، فقال صلى الله عليه وسلم: "**مثل صداق عائشة**"، بما يدل على رضا الطفل اليتيم وسروره.

ومن الوسائل التي استخدمها نبي الإسلام في دمج الأيتام في المجتمع: هي تزويج الأيتام ليكونوا على قدر المسئولية في تحمل أعباء أسرة جديدة، ذكورًا وإناثًا، ولتحقيق مآربهم الفطرية، فعندما بلغ سلمه بن أبي سلمه سن الشباب زوجه بأمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وابنة أسد الله وأسد رسوله، وهذا تأكيد على ترحيب النبي الكريم بمخالطته بأبناء أبي سلمة، حيث أنزلهم هذه المنزلة العظيمة، من مصاهرة بيت النبوة، وهم أيتام ضعاف لا مال لهم.

ولم يكن الزواج ليتم إلا بعد أن أعطى النبي الكريم أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب كامل الحرية في اختيار شريك حياتها، فقد شدّد نبي الإسلام على حق اليتيمة في أن تكون راضية بالزواج ممن تقدم لخطبتها: وعلى وليها أن يأخذ رأيها فيمن رغب فيها، فلا يرغمها على الزواج من رجل لا ترغب فيه، يقول صلى الله عليه وسلم:

---

(1) تخريج سير أعلام النبلاء للأرناؤوط مؤسسة الرسالة،ط3، بيروت: 1405هـ/ 1985م 205/2.

"الْيَتِيمَةُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا، فَإِنْ صَمَتَتْ فَهُوَ إِذْنُهَا، وَإِنْ أَبَتْ فَلَا جَوَازَ عَلَيْهَا. وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنها يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها"[1].

وقد طبق نبي الإسلام الأمر عمليًا على نفسه الشريفة عندما عرض الزواج من ابنة عمِّه أمَّ هانئ بنت أبي طالب بعد فرق بينها وبين زوجها هبيرة بن أبى وهب بن عمرو المخزومى الذى ظل على كفره، وعكفت على رعاية أبنائها الأربعة، واعتذرت عن تنفيذ طلب النبي الأكرم قائلة: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَحَقُّ الزَّوْجِ عَظِيمٌ، فَأَخْشَى إِنْ أَقْبَلْتُ عَلَى زَوْجِي أَنْ أُضَيِّعَ بَعْضَ شَأْنِي وَوَلَدِي، وَإِنْ أَقْبَلْتُ عَلَى وَلَدِي أَنْ أُضَيِّعَ حَقَّ الزَّوْجِ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " **نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ**"[2].

ويروي لنا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مشهد آخر فيقول: " توفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظعون وتَرَك ابنةً له مِن خُويلةَ بنتِ حَكيمِ بنِ أُميَّةَ بنِ حارثةَ بنِ الأوقصِ، قال: وأوصى إلى أخيه قُدامةَ بنِ مَظعونٍ، قال عبدُ الله: وهما خالاي، قال: فخَطَبتُ إلى قُدامةَ ابنِ مَظعونٍ ابنةَ عُثمانَ بنِ مظعون فزوَّجَنيها، ودخل المغيرةُ بنُ شُعبةَ –يعني إلى أمِّها– فأرغبها في المالِ، فحَطَّت[3] إليه، وحَطَّت الجاريةُ[4] إلى هوى أمِّها، فأبَيَا حتى ارتفَعَ أمرُهما إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال قُدامةُ بنُ مَظعونٍ: يا رسولَ اللهِ، ابنةُ أخي أوصى بها إليَّ، فزوجْتُها ابنَ عَمَّتِها عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ، فلم أقصِّرْ[5] بها في الصَّلاحِ، ولا في الكَفاءةِ، ولكِنَّها امرأةٌ، وإنَّما حَطَّت إلى هوى أمِّها، قال: فقال رَسولُ الله صلَّى

---

(1) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني ، المكتب الإسلامي،ط2، بيروت: 1405هـ /1985م ، حديث رقم (1835) .

(2) سبق تخريجه.

(3) فحطت: أي مالت.

(4) الجارية: البكر البالغة الشابة حديثة السن والتي لم يسبق لها الزواج.

(5) أقصر: من الإقصار وهو الكف عن الشيء مع القدرة عليه.

اللهُ عليه وسلَّم: «**هي يتيمةٌ، ولا تُنكَحُ إلَّا بإذنِها**». قال: فانتُزِعَت –واللهِ– مِنِّي بعد أن ملَكْتُها، فزوَّجوها المغيرةَ".

وفيه ما لا يخفى من الاحترام لمشاعر وأحاسيس الفتاة اليتيمة، وتكريمها بإعطائها الحرية الكاملة في الموافقة على من يريد الزواج بها من عدمه، فالبكر اليتيمة البالغة لا تزوج إلا بإذنها، ولا يجوز لوصي ولا غيره إجبارها على الزواج.

ويؤيد ذلك الحديث المروي عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**تُسْتَأْمَرُ**[1] **الْيَتِيمَةُ فِي نَفْسِهَا، فَإِنْ سَكَتَتْ فَقَدْ أَذِنَتْ، وَإِنْ أَبَتْ لَمْ تُكْرَهْ**"[2].

وكانت النتيجة المباشرة للوسائل التي اتخذها النبي الهاشمي في إيواء التيامى بأن تحدث المخالطة بين اليتيم وأهل البيت الذين يكفلونه وكانوا له إما أبًا وإما أمًا، أو أخًا أو أختًا، وكانوا له من الناصحين وهذا هو معنى المخالطة الذي أشار إليه تعالى بقوله: **{.. وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}** (البقرة:220) فالمخالطة هي من أفضل أساليب التطبيع الاجتماعي، بدءًا من المصافحة باليد كأبسط مظهر للمخالطة وانتهاء بالتزويج كاقصى مظهر لها مرورًا بمنافع أخرى كالمؤاكلة والمشاربة والمساكنة وحسن العشرة، فالكل داخل في مطلق المخالطة، وكله متحد في كسر الغربة النفسية التي قد يشعر بها اليتيم وهو داخل المجتمع.

طبق نبي الإسلام الدرس عمليًا، فقد خالط أبناء أم سلمة رضي الله عنها، وهم سلمة، وعمر، ودرة، وزينب، فها هو نراه صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد الرائع، على مائدة الطعام يؤدب عمر بن أبي سلمة في رفق وحنان فيقول له: "**ادْنُ يا بُنَيَّ فسَمِّ اللهَ، وكُلْ بيمينِك، وكُلْ مِمَّا يليكَ**"[3].

---

(1) تستأمر: أي تستأذن، فلا يعقد عليها حتى يعرض الأمر عليها، وتوافق إما صراحة وإما بالسكوت.

(2) صحيح ابن حبان، حديث رقم (4085) .

(3) الترمذي، حديث رقم (1857) .

وها هو النبي الكريم يخالط أبناء جعفر بن أبي طالب، يقول عبد الله بن جعفر رضي الله عنه:"**أن النبي صلى الله عليه وسلم أمهلَ آل جعفرٍ ثلاثا، ثم أتاهمْ فقال: لا تبكُوا على أخِي بعدَ اليومِ. ثم قال: ادْعُوا لي بَنِي أخي فجيء بنا كأننا أفراخٌ، فقال: ادعُوا لِيَ الحلاقَ. فأمرهُ فحلقَ رؤوسَنا، ثمَّ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "أمَّا محمَّدٌ فشَبيهُ عمِّنا أبي طالبٍ، وأمَّا عبدُ اللهِ فشَبيهُ خَلْقي وخُلُقي، ثمَّ أخَذ بَيدي فأَشَالَها، فقال: اللَّهمَّ اخلُفْ جَعفَرًا في أهلِه، وبارِكْ لعبدِ اللهِ في صَفقةِ يَمينِه، قالها ثلاثَ مِرَارٍ، قال: فجاءَتْ أمُّنا فذكَرَتْ له يُتْمَنا، وجعَلَتْ تُفرِحُ له، فقال: العَيْلَةَ تَخافينَ عليهم وأنا ولِيُّهم في الدُّنيا والآخرةِ؟!**" [1].

إننا نرى في هذا المشهد الرائع كثير من الدلالات المهمة لكل داعية ومربي؛ ففي قوله صلى الله عليه وسلم: "**أخي.. وبني أخي**" من الشعور باللحمة الأسرية ما يخفف عنهم فقد الأبوَّة، وكذلك الإشراف المباشر على العناية بهم والتفقد لهم ليهذِّب شعثهم، والدعاء لهم بالخير في الدنيا والآخرة، وهو تعويض نفسيٌّ لا يخفى.

ولم يقف نبي الإسلام على مخالطة من في حجره من أيتام، بل كان يزور أسر اليتامى الآخرين، ويتفقد أحوالهم، ويدعو الله لهم، ويداعب صغارهم. فهذا سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُخَالِطُنَا"[2]. .والمخالطة تعني أكثر من مجرد الزيارة العابرة، بل إنها مخالطة تامة، وتكرار لدخول البيت، ليعلم أحواله، ويتفقد أحوال الأيتام الذين بداخله، ومعرفة ما ينقصهم، وما يحتاجونه، ولذا كثرت زيارة النبي الكريم لبيت خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه وأمه أم سليم رضي الله عنها وكان لهذه المخالطة تأثير كبير على هذه الأسرة الكريمة، إذ تدخل السرور عليهم، ويشعرون بأهميتهم، وتزداد الثقة في نفوسهم.

كما يستوقفنا هنا أيضًا نتيجة مخالطة اليتيم الهاشمي للأيتام فأحبوه، حباً لا يعرف التاريخ له مثيلاً، وتأمل جيدًا هذا الحب في فيما يرويه أنس رضي الله عنه قال: "**كُنْتُ**

---

(1) أحمد في المسند، حديث رقم (1750) .

(2) رواه البخاري، حديث رقم (6203) .

غُلامًا أمْشِي مع رسُولِ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، فدخل رسُولُ اللّـهِ صلّى اللهُ عليْـهِ وسلّم على غُلامٍ لهُ خيّاطٍ، فأتاهُ بِقصْعةٍ فِيها طعامٌ وعليْـهِ دُبّاءٌ[1]، فجعل رسُولُ اللّـهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم يتتبّعُ الدُّبّاء، قال: فلمّا رأيْتُ ذلِك جعلْتُ أجْمعُهُ بيْن يديْـهِ، قال: فأقْبل الغُلامُ على عملِهِ، قال أنسٌ: لا أزالُ أُحِبُّ الدُّبّاء بعْد ما رأيْتُ رسُول اللّـهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم صنع ما صنع"[2].

ولنقف مع موقف أنس رضي الله عنه الذي دفعه حبُّه للنبي صلى الله عليه وسلم أن يمتنع يومها عن أكل الدباء ليُعطيه كله للنبي الكريم ، ثم بعد ذلك اليوم صار مُحِبًّا للدباء؛ لأن النبي الكريم كان يحبُّه! بل جاء في رواية لمسلم عن أنس رضي الله عنه قول عجيب له؛ إذ قال: "**فَمَا صُنِعَ لِي طَعَامٌ بَعْدُ أَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُصْنَعَ فِيهِ دُبَّاءٌ إِلاَّ صُنِعَ**"!

فكان أنس رضي الله عنه يجعل الدباء في معظم طعامه بعد هذا الموقف، وهذا كله من الرغبة الشديدة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وبدهيٌّ أنه إن كان أنسٌ رضي الله عنه حريصًا على اتباع شيء لم يأمر به نبي الإسلام فإنه ولا شك على اتباع أوامره أحرص، وهذه هي الروح التي نبحث عنها، فلا يحرم المسلم نفسه من هذه النوايا الجميلة في فعل ما كان يحبُّه النبي صلى الله عليه وسلم، حتى ولو كان عادة من عاداته التي لم يأمر بها. فقد كان شعارهم قول الله تعالى: **{وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}** (النور:54).

ولعل من أهم الدروس التي ينبغي أن يلتفت إليها كل راعي قوم من هذه المواقف النبوية الكريمة هو ضرورة تعهد أتباعه، وتفقّد أحوالهم، وتعهّدهم بالرعاية والتوجيه. وضرورة مخالطة اليتامى وإيوائهم، حتى ينشأ اليتيم بين أناس يتعامل معهم بشكل طبيعي، ويشعر بحياة طبيعية لا تختلف عن أقرانه الذين يراهم، فينشأ الطفل متوازناً

---

(1) الدباء: القرع فاكهة تتميز بقشرة برتقالية صلبة، وخطوط محفورة على قشرتها، شكلها إما يكون كروياً أو مستطيلاً أو مفلطحاً.

(2) رواه البخاري، حديث رقم(5435) .

نفسياً ومتوافقاً مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه، دون أن يشعر بأي نقص أو حرمان.

والتقى النبي صلى الله عليه وسلم بحارثة بن مالك رضي الله عنه وغلام يتيم، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: "**كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقّاً.. قال: يا حارثة انظر ما تقول! فإنّ لكلّ قول حقيقة! فما حقيقة إيمانك؟ قال: يا رسول الله عزفت نفْسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليليْ، وأظمَأتُ نَهاري، فكأنّي بعرش ربّي بارزاً، وكأنّي بأهل الجنّة يتزاوَرُونَ فيها، وبأهل النار يتَعاوَوْنَ فيها، فقال له النبيّ الله صلى الله عليه وسلم: عرفت فالزمْ، عبد نوّرَ الله الإيمان فِي قلبه**"، **فقَالَ: يا رسول الله ادعُ الله لي بالشهادة، فدَعا له، فقتل رضي الله عنه يومَ بدر**".

وفي رواية: "**من سرّه أن ينظر إلى من نوّر الله قلبه، فلينظر إلى حارثة بن مالك**" [1].

ولما استشهد حارثة بن مالك يوم بدر جاءت أمه – هو وحيدها– إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: "**يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي**[2]**، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: "وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ؟**[3]**، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ**"[4].

لقد أشاد بهذا الحب الذي يكنه الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم اثنان من كبار زعماء العرب الذين كانوا من أشد خصوم نبي الإسلام، وقد شهدا هذه الشهادة قبل إسلامهما، وهما أبو سفيان بن حرب وعروة بن مسعود الثقفي.

---

(1) أخرجه الطبرانيّ والبزّار وغيرهما، وذكر قصّته ابن حجر في الإصابة.تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية ،ط1، بيروت: 1415هـ.

(2) وكان وحيداً لأُمِّهِ.

(3) أي أصابك الهَبَل، وهو الجنون.

(4) رواه البخاريّ في كتاب المغازي رقم (3683) .

أما أبو سفيان فقد قال متعجبًا: "ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً"[1].

وأما الثاني عروة الثقفي فقد قال وهو يخاطب قريشاً: أيْ قومِ واللهِ لقد وفَدْتُ إلى الملوكِ ووفَدْتُ إلى كسرى وقيصرَ والنَّجاشيِّ واللهِ ما رأَيْتُ ملِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ محمَّدًا ووالله إنْ يتنخَّمُ نُخامةً إلَّا وقَعت في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَك بها وجهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرهم ابتدَروا أمرَه، وإذا توضَّأ اقتتلوا على وَضوئِه، وإذا تكلَّم خفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النَّظرَ تعظيمًا له"[2].

ولعلنا نلاحظ أن اهتمام النبي الكريم بأصحابه، ومتابعته لأمورهم، وسؤاله عن أحوالِهم، قد أثمر ثمارًا طيبة حتى حرص أطفال الصحابة على الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم، ونيْلهم للشهادة في سبيل الله تعالى. يايمهم وغير يتيمهم، إيمانًا واحتسابا، طلبًا لرضوان الله عز وجل ومثوبته، فهذا خير ما يدفع المسلم إلى معالي الأمور، ويعين المؤمن على الصبر والثبات في معارك الحياة كلها، ويعزّيه عن فقد من يحبّ في الدنيا.

المواساة الواجبة:

وكان نبي الرحمة يواسي الأيتام الذين فقدوا أبائهم في الجهاد معه ، ولنستمع إلى شهادة الأيتام أنفسهم في معاملته صلى الله عليه وسلم لهم:

يقول عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: أنا أحفظ حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمي، فنعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي وعيناه تهريقان الدموع حتى تقطر لحيته، ثم قال: "**اللهم إن جعفرًا قدم إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته أحسن ما خلفت أحدًا من عبادك الصالحين في ذريته**"[3].. وأمر صلى الله

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 2/ 56.

(2) رواه البخاري، حديث رقم (2732) .

(3) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، المكتب الإسلامي،ط2، بيروت1403هـ: حديث رقم (32197).

عليه وسلم: "**اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم**"[1].

وقال أيضًا: "**لو رأيتَني وقُثَمَ وعُبَيْدَ اللَّهِ ابني عبَّاسٍ ونحنُ صِبيانٌ نلعبُ، إذ مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ على دابَّةٍ، فقالَ: ارفَعوا هذا إليَّ قالَ: فحمَلَني أمامَهُ، وقالَ لقُثَمَ: ارفعوا هذا إليَّ فجعلَهُ وراءَهُ، وَكانَ عُبَيْدُ اللَّهِ أحبَّ إلى عبَّاسٍ مِن قثمَ، فما استَحى من عمِّهِ أن حَملَ قثمًا وترَكَهُ، قالَ: ثمَّ مسحَ على رأسي ثلاثًا، وقالَ كلَّما مَسحَ: اللَّهمَّ اخلُف جَعفرًا في ولَدِهِ قالَ: قلتُ لعبدِ اللَّهِ: ما فعلَ قُثَمُ ؟ قالَ: استُشْهِدَ، قالَ: قلتُ: اللَّهُ أعلمُ بالخيرِ ورسولُهُ بالخيرِ، قالَ: أجَلْ**"[2].

إن هذا الموقف يبين بجلاء برّ نبي الرحمة بأطفال الشهداء، تعويضًا لهم عما فقدوه من رعاية الآباء، فمن بذل روحه في سبيل الله أقل ما له من الحقّ أن يُرعَى في أهله وأولاده، وهكذا يعلم النبي الإسلام أمته من بعده، ويضع لهم القدوة والمثل، ويضع لأولياء أمور المسلمين المنهاج الذي يهتدون به، في رعاية أبناء الشهداء وكفالتهم.

وهذا الصحابي الصغير النجيب أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم النبي صلى الله عليه وسلم من حين هجرته إلى المدينة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم يقول: "**خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ! وَلاَ: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلاَ: أَلاَ صَنَعْتَ؟ وَلاَ عَابَ عَلَيَّ شَيْئاً قَطُّ، وَأَنَا غُلاَمٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ**"[3].

فهذا خادم للنبي الكريم، يظل معه عشر سنوات أو تسع كما في بعض الروايات الأخرى، لم يسمع فيها مرة واحدة كلمة أغضبته أو أزعجته من نبي الرحمة ، على الرغم من كونه صغير السن آنذاك، وقد يرتكب خطأ صبيانيًا مما يقع فيه أمثاله، وهو

---

(1) أخرجه أبو داود: حديث رقم (1976) .

(2)رواه أحمد: المسند: حديث رقم(1760) .

(3) رواه البخاري، حديث رقم(3082) .

ما يصرح به بنفسه فيقول: "**وأنا غلام، ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه**"، ويقول رضي الله عنه أيضًا: "أخذتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِيدِي مقْدم النّبِيِّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم الْمدِينة، فأتتْ بِي رسُول اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم فقالتْ: يا رسُول اللهِ، هذا ابْنِي وهُو غُلامٌ كاتِبٌ، قال: **فخدمْتُهُ تِسْع سِنِين، فما قال لِي لِشيْءٍ قطُّ صنعْتُهُ: أسأْت، أوْ: بِئْس ما صنعْت**"[1].

فلم تكن تصرفات أنس رضي الله عنه جميعًا طوال تسع سنوات مثالية، وكما هو معروف في كل الثقافات البشرية – حتى المعاصرة – أن الخادم قد يتعرض للانتهار والانفعال عليه من قبل مخدومه، ولو في لحظات الغضب، ولا يمثل ذلك شذوذًا، ولا عيبًا عندهم، وقد اعتاد عليه الخدم، وبخاصة في تلك العصور، ومع ذلك لم يوجه نبي الرحمة اللوم والتأنيب إلى مخدومه طوال هذه المدة مرة واحدة، وهو ما يشير إلى عظم أخلاق النبي الكريم في تعامله مع الأطفال عامة والأيتام خاصة، ومراعاة حالتهم النفسية، وعدم انتهارهم ولا قهرهم، فكان مثالاً عمليًا لقوله تعالى: {**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**} (الضحى:9)، وقوله تعالى:{**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} (القلم:4).

بل كان يدعوه "**يا بني**" فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهُ: "**يا بُنيّ**".

ولم يقتصر الأمر على أن نبي الرحمة لم يسئ إليه بشخصه، بل كان لا يسمح لأحد من أهل بيته بانتهاره أو لومه على أمر توانى فيه، مراعيًا يتمه وحرمته، وفي ذلك يقول أنس: "فما أمرنِي بِأمْرٍ فتوانيْتُ عنْهُ، أوْ ضيّعْتُهُ، فلامنِي، فإِنْ لامنِي أحدٌ مِنْ أهْلِ بيْتِهِ إِلّا قال: "**دعُوهُ، فلوْ قُدِّر – أوْ قال: لوْ قُضِي – أنْ يكُون كان**""[2].

وهذا كله من عظمة أخلاق نبي الرحمة وسعة صدره في تعامله مع الأطفال، وتقديره صلى الله عليه وسلم لمرحلة الطفولة وطبيعتها، ودفاعه عن الطفل المخطئ،

---

(1) رواه أحمد: المسند، حديث رقم (12273) .

(2) رواه البخاري، حديث رقم (6038) .

والتماس العذر له، والاهتمام بحسن التعامل معه؛ والرفق به، وهذا كله مما يبقى راسخاً في ذاكرتهم، ويكون له أبلغ الأثر في سلامة شخصيّتهم، وحسن نموّهم.

ومن الشواهد على هذا الاهتمام بالطفل اليتيم نذكر هذا المشهد الجميل الذي يسطر بأحرف من نور في ذاكرة الإنسانية التي تتباهى منظمات الطفولة بأعمال لا تقارن بأعمال نبي الرحمة .. فقد كان لأنس بن مالك رضي الله عنه له أخ صغير، يحبه كثيراً.. وكان عند هذا الصبي الصغير عصفور صغير، يحبه ويداعبه ولا يكاد يتركه ساعة واحدة.. وإذا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيت أنس رضي الله عنه يسأل عن هذا الصبي الصغير، وقد كنّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي سمّاه)، "**أبا عُميرٍ**".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يداعبه بقوله: "**أَبَا عُمَيْرٍ! مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**"[1].

والنغير هو هذا العصفور الصغير الذي كان يلعب به الصبي.

وفي أحد الأيام جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت أنس، وسأل كعادته عن الصبي الصغير.

فأجابه أنس رضي الله عنه، أن عصفور أبي عمير قد مات، وأن أبا عمير – ذلك الطفل الصغير – حزين جداً لموت العصفور.

أقبل نبي الرحمة مسرعاً إلى الصبي الصغير، وأخذ يواسيه ويخفف عنه حزنه. فتبسم الصبي الصغير وفرح لكلام النبي الله عليه وسلم، ونسي حزنه على عصفوره الصغير، لما سمع من كلام جميل من حبيبه النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد احترم نبي الرحمة هذا الطفل اليتيم في حزنه على عصفوره الذي يلعب به، ويسأله عنه: "**يا أبا عمير ما فعل النغير؟**"، حتى يزيل ما به من حزن، فعامله على

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم (6203) .

قدر عقله، وفي هذا السؤال عن الطائر إقرار من النبي الكريم بحق الطفل في اللعب، وحاجته الفطرية لذلك، فلم يمانع نبي الرحمة هذا الطفل الصغير من اقتناء هذا الطائر الصغير، وإنما راعى حاجته النفسية للعب.

فهل قرأنا عن أحد أحن بالأطفال وأرفق بهم من نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، الذي واسى هذا الطفل اليتيم الصغير (أبا عُميرٍ) في حزنه على عصفوره، واهتم بأمره، وهذا ليس بمستغرب من نبي الرحمة.

لقد كانت الصلاة أحب شيء إلى النبي صلي الله عليه وسلم ، ففيها قرة عينه؛ لأنها مناجاة الله عز وجل، ومع تلك اللذة بالصلاة عند نبي الإسلام نرى منه عجبًا، فنراه يحمل حفيدته أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع في الصلاة شفقة عليها بعد ما ماتت أمها السيدة زينب رضي الله عنها فكان يخرج بها أحيانًا إلى المسجد، فيحملها وهو في الصلاة، فإذا سجد وضعها على الأرض، وإذا قام حملها على كتفه الشريف صلى الله عليه وسلم. فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُصَلِّي، وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَلأَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا"[1].

لم تكن هذه حالة واحدة، وإنما كان هذا المسلك منهجاً عامًا يسلكه في حياته كلها، وقد أكد هذا خادمه الملازم له أنس، حين قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع بكاء الصبي، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة القصيرة ، والسورة الخفيفة[2].

صلوات يشهدها مئات من أصحابه، يرغبون كلهم كما يرغب نبي الرحمة بإطالتها، لكن بكاء طفل صغير مع أمه التي شهدت الصلاة ، يجعل نبي الرحمة يوجز فيها ، رحمةً منه بالأم ، لعلمه بشدة شفقتها، ورحمة بالطفل الذي يبكي ، لأنه لا يحتمل سماع بكاء الأطفال.

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم (844) .

(2) رواه البخاري، حديث رقم (989) .

وهذا دليل على شدة رفق النبي ورحمته بالأطفال عامة والأيتام خاصة، وحسن رعايته لهم. وتعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وأمّته ذلك بصورة عمليّة؛ فالأمة كما تُكلّفُ أن تقتديَ بنبيّها صلى الله عليه وسلم في صلاته ، فهي تُكلّفُ أن تقتدي به صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الأَطفال وجميع علاقاته، ولعلّ اقتران هذا الموقف بالصلاة من خير ما يشير إلى ذلك.

وبهذه المناسبة نود أن نهمس هنا في أذن الذيْن تثور ثائرتهم باسم الغيرة على الدين، عندما يرون بعض الأطفال مع آبائهم في المسجد، فنقول لهم: يجب أن تتأمّلوا هذا الحديث، وأمثاله الكثير، وتصحّحوا أفكاركم وسلوككم تجاه الأطفال في المساجد، فليس في دخولهم للمساجد حظر، ولكنهم يتعهدون بحشن التوجيه.

وتتخطى رحمة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أيتام المسلمين من غير الأهل والأقارب، فعن حنظلة بن جذيم أن جدَّه حنيفة دنا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إنَّ لي بنين ذوي لحًى ودون ذلك، وإنَّ ذا أصغرُهم فادعُ اللهَ له، فمسح رأسَه وقال: **بارك اللهُ فيك أو بُورك فيك**، قال ذيالٌ: فلقد رأيتُ حنظلةَ يؤتَى بالإنسانِ الوارمِ وجهُه أو البهيمةِ الوارمةِ الضَّرعُ فيتفُلُ على يديْه، ويقولُ: بسمِ اللهِ. ويضعُ يدَه على رأسِه ويقولُ على موضِعِ كفِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم فيمسحُه عليه، وقال ذيالٌ: فيذهبُ الورمُ"[1].

عرف المجتمع النبوي رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالأيتام، من حالِه ومقاله، وأن الضعفاء في أول اهتماماته صلى الله عليه وسلم، فكانوا يقصدونه بهم رغبة في الدعاء والمواساة لشدة ما يجده من رحمة وعطف وإحساس.

ولم تقتصر هذه الرحمة على المسلمين بل قد تعدت ذلك إلى الرحمة والشفقة بالأيتام من غير المسلمين، فكان لا يسمح بإيذائهم فضلاً عن قتلهم في الحروب. فها هو يرى أصحابه في إحدى الغزوات امرأة معها ماء، وكانوا يبحثون عن الماء، وتؤخذ

---

(1) رواه أحمد: المسند ، حديث رقم (20684) .

المرأة أسيرة مع الماء الذي كان معها، فتخبره أنها مؤتمة لها صبيان أيتام – كما في الحديث الطويل الذي رواه عمران بن حصين– وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "**هَاتُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ**"، قال عمران: فَجَمَعْنَا لَهَا مِنْ كِسَرٍ وَتَمْرٍ، وَصَرَّ لَهَا صُرَّةً، فَقَالَ لَهَا صلى الله عليه وسلم: "**اذْهَبِي فَأَطْعِمِي هَذَا عِيَالَكِ، وَاعْلَمِي أَنَّا لَمْ نَرْزَأْ مِنْ مَائِكِ**"[1].

رغم أنها من الأعداء إلا أن نبي الرحمة رق لحالها عندما أخبرته أنها ذات أيتام، ولم يروعها، ولم يأخذها سبية، بل أحسن إليها، وجمع لها من المال ما تطعم بها عيالها، وما أخذ من مائها شيئًا، بل كانت معجزة باهرة من معجزات نبي الإسلام، أن بارك على هذا الماء فملأ منه أوعية جيش المسلمين، وظل الماء كما هو لم ينقص منه شيء، وعادت المرأة إلى قومها تحمل ماءها كله، لم تنقص منه قطرة واحدة. وقد علمت تلك المرأة حقيقة تلك المعجزة النبوية، فأخبرت قومها بها، وكانت شاهد صدق عليها، فأسلموا جميعًا.

لقد بين لنا هذا المشهد كيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع تلك المرأة؟!، وكيف كان تقديره صلى الله عليه وسلم لمشاعر الأمومة، وحرصه على الإحسان إلى الأيتام، ولو كانوا من غير المسلمين؟!.. فهل نبعد في القول إذا قلنا بعدئذ: إنّ مشاعر الأمومة في الإسلام مقدّسة، فالدفاع عن الإسلام، وحفظ حرماته، لا يعطّل مشاعر الأمومة والطفولة، ولا يرضى بالإساءة إليها.

مشهد أخر ترويه لنا زينب– امرأة عبدالله– قالت: " قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: **تَصَدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، وَلَوْ من حُلِيِّكُنَّ، قالت: فَرَجَعْتُ إلى عبد اللَّهِ، فقلت: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قد أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ، فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ، فَإِنْ كان ذلك يجزئ عَنِّي، وَإِلا صَرَفْتُهَا إلى غَيْرِكُمْ، قالت: فقال لي عبد اللَّهِ: بَلْ ائْتِيهِ أَنْتِ، قالت: فَانْطَلَقْتُ فإذا امْرَأَةٌ من الأَنْصَارِ بِبَابِ رسول**

(1) رواه مسلم، حديث رقم (682) .

اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حَاجَتِي حَاجَتُهَا، قالت: وكان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قد أُلْقِيَتْ عليه المَهَابَةُ، قالت: فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلالٌ، فَقُلْنَا له: ائْتِ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلانِكَ أَتُجْزِئُ الصَّدَقَةُ عنهما على أَزْوَاجِهِمَا، وَعَلَى أَيْتَامٍ في حُجُورِهِمَا؟ ولا تُخْبِرْهُ من نَحْنُ، قالت: فَدَخَلَ بِلالٌ على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلَهُ، فقال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، من هُمَا؟ فقال: امْرَأَةٌ من الأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الزَّيَانِبِ؟ قال: امْرَأَةُ عبد اللَّهِ، فقال له رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: لَهُمَا أَجْرَانِ؛ أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ"[1]، وفي حجرها بنو أخ لها أيتام، وللأخرى فضل مال، وزوج خفيف ذات اليد، وهذا القول كناية عن الفقر.

في هذا الشهدي النبوي دعوة إلى التكافل؛ مما ينتج عنه تماسك المجتمع, وينمو الشعور بالانتماء لذلك المجتمع، ويحس الأفراد بالاطمئنان على مستقبلهم ومستقبل أولادهم، ونحصل على توزيع أفضل للدخل والثروة داخل المجتمع، ولهذا كله نجد أن الصحابة هم أكثر القرون تمسكًا بهذه الوسائل؛ لأن إيمانهم مستمد من إيمان النبي صلى الله عليه وسلم.

واجب الاحترام والتوقير:

ذكرنا سابقًا أن الإسلام جاء واليتيم ليس له حظ في الحياة الآدمية الكريمة، فأمر بإكرامه والإحسان إليه، مشيراً إلى أن الإحسان إلى اليتيم خلق إسلامي رفيع، بل جعله من أفضل الأعمال وأزكاها، وكان نبي الإسلام يحترم الأيتام ويُراعي شعورهم، ويجبُر خاطر من أصيب منهم بمصيبة، ولا يقلل من أقدارهم، بل يرفعهم إلى مستوى الرجال، ويعاملهم كما يعامل الرجال الكبار، زيادة في تعبئتهم نفسيًّا، لتحمل المسؤولية، حتى لا يركن اليتيم إلى مشاعره السلبية، وضعفه في المجتمع، بل يحفظ له دوره وكيانه،

(1) رواه البخاري، حديث رقم (1466) .

ويجعله في مصاف الكبار الذين يعتمد عليهم. وقد اتخذ النبي الهاشمي في سبيل تحقيق ذلك عدة وسائل منها:

1- المساواة بينهم وبين الآخرين: فلم تعرف الإنسانيّة مصلحاً فرضَ المساواة بين الناس، وشدّد على حقوق جميع أصناف الضعفاء وأولهم اليتيم والعامل والأجير كالنبي صلى الله عليه وسلم، ولما لا وهو يتلقى الإصلاح على مائدة الوحي الربانية، وكم كانت المعاملة الإنسانيّة الكريمة سبباً لدخول الناس في دين الله أفواجًا؟! فعَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "**يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**"[1].

إن هذه الوصية من النبي صلى الله عليه وسلم قد وقعت من نفس أبي ذر وقلبه موقعًا عظيمًا، فترسخت في كل من عقيدته وقلبه وسلوكه، فنراه يلبس خادمه من القماش الذي يلبسه، ويطعمه من طعامه الذي يأكله، ويركبه دابة كدابته، فهو كصديق أو رفيق، لا عبد خادم. وهكذا تتجلى سماحة الإسلام، وحسن خلق أتباعه أعظم ما تتجلّى في تعامله مع الضعفاء والمساكين، ومن يكونون تحت أيديهم من العمّال والخدم والعبيد.

وما أكثر ما أكرم الله به نبي الإسلام من المعجزات، تكرمةً لأصحابه، وتقوية للإيمان في قلوبهم، ودفعاً للضرّ والبلاء عنهم. ولنترك الصحابية الجليلة أم جندب رضي الله عنها تقص علينا واحدة من هذه المعجزات النبوية التي تدخل في صلب موضوعنا، فتقول رضي الله عنها: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ مِنْ بَطْنِ الوَادِي يَوْمَ النَّحْرِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَبِعَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ، وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا

(1) رواه البخاريّ، حديث رقم (29) .

بِهِ بَلاءٌ، لا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ هَذَا ابْنِي، وَبَقِيَّةُ أَهْلِي، وَإِنَّ بِهِ بَلاءً، لا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "**ائْتُونِي بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ**، فَأُتِيَ بِمَاءٍ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ، وَمَضْمَضَ فَاهُ، ثُمَّ أَعْطَاهَا، فَقَالَ: **اسْقِيهِ مِنْهُ، وَصُبِّي عَلَيْهِ مِنْهُ، وَاسْتَشْفِي اللهَ لَهُ**، قَالَتْ: فَلَقِيتُ المَرْأَةَ، فَقُلْتُ: لَوْ وَهَبْتِ لِي مِنْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّمَا هُوَ لِهَذَا المُبْتَلَى، قَالَتْ: فَلَقِيتُ المَرْأَةَ مِنَ الحَوْلِ[1]، فَسَأَلْتُهَا عَنِ الغُلامِ، فَقَالَتْ: بَرَأَ وَعَقَلَ عَقْلاً، لَيْسَ كَعُقُولِ النَّاسِ"[2].

إننا نرى في هذا الحديث اهتمام نبي الرحمة بهذا الطفل المبتلى، وبركته في شفائه بإذن الله تعالى، ممّا يعدّ منْ دلائل النبوّة الكثيرة، وظهور بركة النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصورة يدخلُ في مَعنى قول الله تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**} (الأنبياء: 107).

وفي قول المرأة: "**وبقية أهلي**" ما يشعر بأنه كان يتيمًا وحيدًا، مما كان له أكبر الأثر في عطف النبي صلى الله عليه وسلم الذي ما كان يرد سائلاً قط.

2- إظهار المحبة له وإعلانها: فعندما طار كلّ شيء فرحاً لمقدم نبي الإسلام إلى المدينة، وتلألأ وزغرد.. وسرى نسيم الحب بكل من فيها، وما فيهَا من أيتام.. حتّى الجواري اللاتي لم يخفت بريق فطرتهنّ عبّرن عن محبّتهنّ بغناء الطفولة العذب، والضرب بالدفّ.. فرَحاً وابتهاجاً لحلول النبي الإسلام في ديارهم.. فبادلهنّ النبي صلى الله عليه وسلم حبّاً بحبّ، ودعاءً بصفاء قلوبهنّ، وفرحة أرواحهنّ: "**الله يعلم إنّي لأحبّكنّ.. اللهمّ بارك فيهِنّ**".

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ ببعض المدينة بجوارٍ من الأنصار، وهن يضربن بدفّهنّ، ويغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار... يا حبذا محمد من جار

---

(1) أي بعدَ سنة.

(2) سنن ابن ماجة: دار الفكر ، حديث رقم (3523) .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " **الله يعلم إني لأحبكن** "[1].

وفي رواية عنهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم اسْتَقْبَلَهُ ذَاتَ يَوْمٍ صِبْيَانُ الأَنْصَارِ وَالإِمَاءُ، فَقَالَ: " **وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكُمْ** " [2].

3- إلقاء السلام على الأيتام: كان إلقاء السلام من وسائل النبي صلى الله عليه وسلم في توقيرهم وإظهار الاهتمام والعناية بهم، فعَنْ سَيَّارٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتٍ البُنَانِيِّ[3]، فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ ثَابِتٌ: كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ رضي الله عنه فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم **فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ**"[4].

ومن أهم الدلالات التربوية التي يقتنصها المربي من هذا الحديث أن يحسن التعامل مع الصبيان، وإلقاء السلام عليهم، تعليمًا لهم لفضائل الإسلام وآدابه، والأصل أنّ الصغير يبتدئ الكبير بالسلام، ففي ذلك إشعار لهم بكيانهم، وتقدير الكبار لهم، ورفع لهممهم أن يتّصلوا بالكبار، ويقتدوا بهم.

4- التهليل والترحيب: كان النبي يستقبل الأطفال الأيتام خاصة بالتهليل والترحيب والبُشر ، ليأنسوا به، ويسرّوا بلقياه.. فهذا مشهد تظهر فيه رحمته صلى الله عليه وسلم وحسن استقباله للأيتام بأبهى صورها، وذلك عندما فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنه قَالَ: "**كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ**

---

(1) راه ابن ماجة، حديث رقم (1899) .

(2) رواه أحمد، حديث رقم (13532) .

(3) ثابت البنانيّ تابعيّ من أئمّة الهدى، زاهد عابد، صحب أنس بن مالك رضي الله عنه ولازمه، وقال فيه أنس رضي الله عنه: "إنّ للخير مفاتيح، وإنّ ثابتاً البُنانيّ من مفاتيح الخير"، وقال فيه بكر بن عبد الله: "من أرادَ أن ينظرَ إلى أعبد أهل زمانه فلينظُر إلى ثابت البنانيّ".

(4) رواه الترمذي، حديث رقم (2620) .

بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ: فَأُدْخِلْنَا المَدِينَةَ ثَلاثَةً عَلَى دَابَّةٍ" [1].

ولَنا أن نتصور حالة رجل عظيم عائد من السفر يتدافع إليه ثلاثة أطفال، ويتزاحمون عليه، أيهم يكون الأقرب منه، والأولى بالركوب خلفه، إنه مشهد يفيض رحمة، وعفوية، وتبسط. هذا المشهد يذكرنا، كيف أن كثيراً من الزعماء يتوددون إلى الناس في المناسبات، أو في مواسم الانتخابات بالاحتفاء بالأطفال كمرافقتهم أو مداعبتهم، أو تقبيلهم، لأنهم يعلمون أن هذه التصرفات تظهر للناس الوجه المشرق فيهم، وتقربهم إلى قلوب جماهيرهم؛ بيد أن نبي الإسلام ليس كهؤلاء السياسيين الذين لا يظهرون إلا في المناسبات، ووراءهم كثير من خبراء علم النفس الاجتماعي يشرحون لهم كيفية تسول حب الجماهير لهم، وكسب مشاعرهم وأصواتهم، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل هذه المعاني بأقواله وأفعاله قبل (1440 سنة) بكل عفوية صادقة، ونية خالصة لوجه الله تعالى، دون تصنع أو رياء، فقلبه يفيض بالرحمة والرأفة على الأطفال والضعفاء، وهذا ما جعل الأطفال يهرعون إليه كلما عاد من سفر.

5- إطلاق الكُنى: من الأعراف الجارية في المجتمع العربي إطلاق الكنى على الأشخاص، من باب الاحترام والتكريم لهم، فينادى العربي مثلا: يا أبا بكر، ويا أبا فلان، والعربية يا أم فلان.. وقد مارس نبي الإسلام هذه العادة العربية، وجعلها أسلوبًا تربويًّا في معاملة الأطفال اليتامى، فكان يطلق الكنى عليهم، فيقول للطفل مثلا: "**يا أبا عُمير!**". فالكنية تشعر الطفل وبخاصة اليتيم بأنه قد كبر في السن وباستطاعته تحمل المسئولية، وتمحو فيه التخنث والميوعة في النداء والتدليل الزائد، كما تشعر إخوانه وأهله بأن ابنهم أصبح في مصاف الشباب.

6- المداعبة:قد حفظت لنا كتب السنة والسيرة النبوية الشريفة بعض المواقف من مداعبة نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم للأطفال اليتامى ومزاحه معهم، من باب

---

(1) أخرجه مسلم، حديث رقم (4455) .

الملاطفة والرعاية لهم، فقد كان نبي الرحمة يفيض عليهم حنانًا وعطفًا، بعيدًا عن الجفاء والقسوة والشدة والغلظة.. فها هو صلى الله عليه وسلم يغتسل وعندما تدخل عليه ربيبته زينب بنت أم سلمة ينضح الماء في وجهها، وقال لها: "**ارجعي**" فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، ولم تظهر فيه التجاعيد، بل كان ماء الشباب ثابتًا في وجهها ظاهرًا في رونقها وهي عجوز كبيرة.

ومن حسن معاملته صلى الله عليه وسلم لسيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان كثير المداعبة له، فقد كانت له: "ذؤابة، فأراد أن يجزّها فنهته أمه. وقالت: كان النّبِيّ يمدها، ويأخذه بها، وداعبه النّبِيّ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم فقال له: **يا ذا الأذنين**"[1].

ويخبرنا سيدنا أنس نفسه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: "**يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**": يَعْنِي مَازَحَهُ[2].

ويتضح في هذا المشهد النبوي روح الدعابة والملاطفة لأنس رضي الله عنه وذلك لما لهذه الدعابة من أثر تربوي على المتربي، وقد كان هذا هو المنهج الذي يعيشه النبي صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا قال: "**إني لا أقول إلا حقًا**"[3]. وهذه المداعبة والممازحة فيها الحض على حسن الاستماع والوعي بتلك الآذان؛ لأن السمع يكون بحاسة الأذن، فينبغي استخدام نعمة الله عز وجل فيما خلقت له.

كما أن افتخار أنس رضي الله عنه بهذه المداعبة وإخباره بها مما يبين وقوعها منه موقعًا حسنًا، وأنه لم يشعر معها بحرج ولا تقليل شأن، فلم تكن مثلاً على سبيل السخرية، بل على سبيل التودد والتلطف، مما يدل على أهمية قرب المربي من

---

(1)سنن أبو داود: تحقيق وتعليق عزت الدعاس، سوريا ،1391هـ ،4/ 301.

(2) راه الترمذي.حديق رقم(1992).

(3) أخرجه الترمذي، حديث رقم (1990) .

المتربي، وأن الدعابة من الوسائل التربوية الداعمة لذلك، وكما أن الملاعبة من طرق التواصل الجيد مع الأبناء، فكذلك الدعابة والمزاح بين الحين والحين، والملاطفة والتورية في الحديث، والتعليق دون جرح المشاعر، والملاعبة بما لا يذهب الهيبة تعد كلها من الوسائل التربوية التي تساعد على حسن التواصل بين المربي والمتربي، ومن ثم التأثير فيه بما ينفعه.

كما كان صلى الله يداعب الأطفال بما يناسب سنَّهم واهتماماتهم، وهذا فنّ لا يحسنه أكثر الكبار، وعندما تكون المداعبة هادفَةً محَبِّبة، فتلك السقيا العذبة المسلسلة، الموصولة بهدي نبي الرحمة ، صاحب الخلق العظيم..

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ رضي الله عنه قَالَ: "**عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ**" [1].

والمجّ هو إلقاء الماء أو الشراب من الفم، والمُجاج هو ما يلقى من الفم. وهذا من مداعبته صلى الله عليه وسلم للأطفال، وهذا من خير ما يحبّبهم بالكبار، ويقرّبهم منهم، ويهيّئهم للتكيّف الاجتماعيّ المنَاسبن كما أن مزاح المربّي الحكيم لا يقف عند حدّ المزاح فحَسب، دون أن يحقّق مقاصد أخرى مشروعة مفيدة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كانت عند أم سليم يتيمة – وهي أم أنس – فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليتيمة، فقال:" أنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنك" فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم : مالك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا علي رسول الله أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا أو قالت : قرني فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها (أي تديره على رأسها وعنقها)، حتى لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها رسول الله :" مالك يا أم سليم؟" فقالت: يا نبي الله، أدعوت على يتيمتي؟ قال:" وما ذاك يا أم سليم؟" قالت: زعمت أنك دعوت ألا يكبر سنها، ولا يكبر ، قرنها، قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:" يا

(1) رواه البخاري، حديث رقم (77) .

أم سليم، أما تعلمين شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيُّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة تقربه بها منه يوم القيامة "[1].

وهذا الموقف فيه عدد من المسائل والفوائد: الأولى : أن هذا الدعاء الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل المداعبة والممازحة لتلك اليتيمة الصغيرة ليس مقصودا بذاته، وإنما هو مما جرت به عادة العرب كقوله: "تربت يمينك"[2] و "عقرى حلقى" [3] و"لا أشبع الله بطنك" ونحو ذلك، ولا يقصدون به حقيقة الدعاء وإرادة وقوعه، وإنما هي عادة غالبية العرب يصلون كلامهم بهذه الدعوات، ويجعلونها دعاما لكلامهم..ومع ذلك خاف صلى الله عليه وسلم أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى ، ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة ، وكفارة ، وقربة ، وطهورًا وأجرًا، مع أن ذلك كان يقع منه صلى الله عليه وسلم في النادر من الأزمان وبهذا يتبين وهذه الفائدة الثانية أن ما يقع من كثير من الآباء والأمهات من الدعاء على أولادهم أمر منكر، لأن دعاءهم ليس كدعاء النبي صلى الله عليه وسلم جهة أن نبي الرحمة، جعل الله دعاءه على الناس لو صدر رحمة وطُهْرة لهم، وهذه خصوصية له دون غيره، ثم إن دعاء أولئك الناس ليس من قبيل كلام العرب الذي أشرنا لبعض أمثلته، لأن دعاء الوالدين الذي نسمعه هو بالموت العاجل والمصيبة الفادحة والداهية القاتلة، نسأل الله السلامة، وقد قال صلى الله عليه وسلم :" لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم "[4] .. الثالثة: بيان ما كان عليه نبي الرحمة من التواضع وحسن

---

(1) أخرجه مسلم، حديث رقم(٢٦٠٣).

(2)أخرجه البخاري ، حديث رقم (٦١٥).

(3)أخرجه البخاري ، حديث رقم (٦١٥).

(4)أخرجه رواه مسلم ، حديث رقم(٣٠٠٩).

الخلق، فهو صلى الله عليه وسلمم لم يستكثر ممازحة تلك الطفلة الصغيرة ومداعبتها بشيء من الكلام، وقد كان عليه الصلاة والسلام يرى هؤلاء الأطفال اليتامى والربائب في بيوته عند أزواجه، ومن أولئك هذه الطفلة اليتيمة، وكان قد رآها صغيرة، ثم غابت عنه مرة فرآها قد طالت وعَبُلَت كما يقول الحافظ القرطبي، ومعنى عبلت أي ضخمت وابيضت فتعجب عليه الصلاة والسلام من سرعة ذلك، فقال لها ذلك القول متعجبًا، ممازحًا.. وقد قال بعض أهل العلم: إن قوله صلى الله عليه وسلم:" لا كبر سنك" بمعنى ألا يكبر سنها كبرا تعود به إلى أرذل العمر ، فتبقى على قوتها ونشاطها مدة حياتها.

بناء الشخصية:

لقد حرص عليها نبي الإسلام في تربيته للأطفال عمومًا، واليتامى خصوصًا، مسألة بناء الشخصية، وتعزيز ثقة الطفل بنفسه، حتى ينشأ قويًا في صغره، معتمدًا على نفسه، ومن أهم الوسائل التي استخدمها النبي الكريم لتحقيق هذا الغرض ما يلي:

1- السماح لهم بالجلوس مع الكبار: إن جلوس الأطفال الصغار مع الكبار يعمل على نزع الرهبة من قلوب هؤلاء الأطفال، ومشاركة الكبار مجالس العلم، والإدلاء برأيهم وأقوالهم، وحفظ حقوقهم في المجلس كالكبار سواء بسواء، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: "**لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنَّ هَا هُنَا رِجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي، وَقَدْ صَلَّيْتُ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ مَاتَتْ فِي نِفَاسِهَا، فَقَامَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَسَطَهَا**"[1].

فهذا درس عملي للمربين، في كل زمان ومكان، حتى يأخذوا بيد اليتيم، ويتلطفوا معه، وإذا كانت النظريات التربوية الحديثة تحث على هذا المسلك في التعليم والتقويم، فإن النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم أرشد إليه قبل مئات السنين.

---

(1) أخرجه مسلم، حديث رقم (964) .

احترام حقوقهم في المجلس: كما ينبغي هنا أن نشير إلى مبدأ سام آخر في الإسلام ألا وهو أن الطفل إذا حضر مجلس الكبار، فقد أصبحت له حقوق لا يجوز لأحد تجاوزها إلا بإذنه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على تحقيق هذا المبدأ، لما فيه من احترام شخصية الطفل، ومراعاة حالته النفسية.

ويخبرنا سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن موقف من المواقف التي شهدها شخصيًّا عند النبي صلى الله عليه وسلم مما يرسخ هذا المبدأ فيقول: "إنّ رسُول اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم أُتِي بِشرابٍ فشرِب مِنْهُ، وعنْ يمِينِهِ غُلامٌ، وعنْ يسارِهِ الأشْياخُ، فقال لِلْغُلامِ: "**أتأْذنُ لِي أنْ أُعْطِي هؤُلاءِ؟**" فقال الغُلامُ: واللّهِ يا رسُول اللّهِ، لا أُوثِرُ بِنصِيبِي مِنْك أحدًا، قال: فتلّهُ رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم فِي يدِهِ"[1].

إن هذا الطفل كان يجلس عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حقه أن يشرب بعده كما يتوافق مع الأدب النبوي، أن يدور الكأس عن اليمين، فاستأذن الطفل أن يعطي الأشياخ قبله، ولكن الطفل رفض هذا المقترح، لا لسوء أدب منه، ولكن لأنه لا يريد أن يفرط في البركة من الشرب من موضع شرب النبي الكريم، وفي هذا دلالة على حسن فهم وتقدير للأمور، وليس سوء الأدب كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، فاحترم النبي الكريم رغبته، وأعطاه حقه، وناوله الإناء في يده.

ومثل هذا بالضبط حدث مع سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه فلنترك الكلام لأخيه عبيد الله ليروي لنا بنفسه هذا الموقف فيقول: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِلَبَنٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَنْ يَسَارِهِ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ رضي الله عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم لابْنِ عَبَّاسٍ: "**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَسْقِيَ خَالِداً** رضي الله

(1) ابن حبان: صحيح، حديث رقم (5335) .

عنه قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أُحِبُّ أَنْ أُوثِرَ بِسُؤْرِ[1] رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم عَلَى نَفْسِي أَحَداً، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَشَرِبَ، وَشَرِبَ خَالِدٌ"[2].

إن ابن عباس رضي الله عنه كان في هذا الوقت في عمر أبناء خالد بن الوليد، بطل الإسلام وسيف الله المسلول، ومع ذلك فقد احترم النبي الكريم حقه في المجلس، فلا يغير مسار الإناء إلا بإذنه، وفي هذا من الدروس التربوية ما يكفي ليبني شخصية أطفال الأمة الإسلامية بناء متينًا لو طبق على المنهاج النبوي الكريم، فالطفل يتصدر المجالس مع الكبار بلا حرج، ما دام واعيًا، مدركًا لقيمة المجلس، وفيه أيضًا بيان لذكاء ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ونَباهته وهو غلام.

2- الاعتداد بهم في صفوف الصلاة: وهذا من الوسائل التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو جانب مهم في تربيتهم وبناء ثقتهم بأنفسهم، وتعزيز شخصيتهم، فعن أنس رضي الله عنه: أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ لَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: "**قُومُوا فَلِأُصَلِّ لَكُمْ**" قَالَ أَنَسٌ: **فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا، قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَفَفْتُ وَالْيَتِيمَ وَرَاءَهُ، وَالعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ**"[3].

واليتيم الذي يقصده أنس هو ضميرة بن أبي ضميرة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، في هذا المشهد نرى يتيمان هما أنس وضميرة، صفهما النبي صلى عليه وسلم خلفه، وصلت أم أنس خلفهما في صف مستقل. ولو لم يعتبرهما النبي صلى الله عليه وسلم كالرجال ما صلى وهم إلى جواره مثلاً، ولكنه لما صفهما خلفه دل ذلك على اعتبار أنهما في صفوف الصلاة كالبالغين سواء بسواء.

---

(1) السؤر هو البقيّة من الطعام أو الشراب أو أيّ شيء.

(2) رواه أحمد في المسند برقم (3417) .

(3) رواه البخاري، حديث رقم (380) .

3- الاعتداد بإمامته في الصلاة: بل يحظى الطفل في الإسلام بحقه كاملاً في تبوأ المكانة التي يستحقها، ما دام هو الجدير بذلك، فمن المعلوم من شعائر الإسلام أن الأولى بإمامة الصلاة هو الأقرأ لكتاب الله عز وجل، ولو كان صغير السن، فإنه يقدم احترامًا لما معه من القرآن، ليقرأ على الناس كلام الله عز وجل قراءة سليمة، وهذا عمرو بن سلمة يخبرنا بهذه الحقيقة فيقول: "كُنَّا بحاضِرٍ يَمُرُّ بنا الناسُ إذا أتَوُا النبيَّ- صلى الله عليه وسلم -، فكانوا إذا رجعوا مرّوا بنا، فأخبرونا أنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: كذا وكذا، وكنتُ غلاماً حافظاً، فحَفِظتُ من ذلك قرآناً كثيراً، فانطَلَقَ أبي وافِداً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نَفَرٍ من قومِه، فعلمَهم الصَّلاة، وقال: "**يَؤُمُّكُم أقرَؤُكم**" فكنتُ أقرَأَهم لِمَا كنتُ أحفَظُ، فقدّموني، فكنتُ أؤُمهم وعليَّ بُرْدةٌ لي صغيرة صفراءُ، فكنتُ إذا سجدتُ تكشَّفَت عنِّي، فقالت امرأة من النساء: وارُوا عنَّا عَورةَ قارئكم، فاشتَرَوا لي قميصاً عُمانياً، فما فَرِحتُ بشيءٍ بعدَ الإسلام فَرَحي به، فكنتُ أؤمُّهم وأنا ابنُ سبعِ سنين، أو ثمانِ سنين"[1].

إن هذا مشهد تربوي عظيم، ينبغي أن يكون في ذهن كل راع ومسئول عن أمة، ففيه تقديم هذا الطفل الصغير ذي السنوات السبع أو الثمان لإمامة قومه في الصلاة، لأنه الجدير بذلك، فأهل القرآن هم أهل التقدّم في الدنيا والآخرَة، وأمّة القرآن عندما تعملُ بالقرآن، وتُقيمُ شريعتَه، فَلهَا التقدّم على سائرِ الأمم. فينبغي على كل مسئول أن يبحث عمن تتوافر فيهم الكفاءة والفضل لتقديمهم، دون النظر إلى سنهم.

4- الدعاء لليتيم: الدعاء للطفل بخيري الدنيا والآخرة من الأمور التي تسعد قلبه، وتعلّقه بالله تعالى ورجائه، وتزرع فيه الرغبة الصادقة أن يهيّئ الله تعالى له الخير، ويصرف عنه الشرّ، ويجعله لوالديه قرّة عين.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَمَا هُوَ إِلاّ أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي فَقَالَ: قُومُوا فَلأُصَلِّيَ بِكُمْ، فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلاةٍ، فَصَلَّى بِنَا

(1) رواه أبو داود، حديث رقم(585).

فَقَالَ رَجُلٌ لِثَابِتٍ: أَيْنَ جَعَلَ أَنَساً مِنْهُ ؟ قَالَ: جَعَلَهُ عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ البَيْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ ! خُوَيْدِمُكَ ادْعُ اللهَ لَهُ ؟ قَالَ: فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ أَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ"[1].

قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه جَاءَتْ بِي أُمِّي أُمُّ أَنَسٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَزَّرَتْنِي بِنِصْفِ خِمَارِهَا وَرَدَّتْنِي بِنِصْفِهِ[2]، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا أُنَيْسٌ ابْنِي أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ فَادْعُ اللهَ لَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فَوَاللهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ المِائَةِ اليَوْمَ"[3].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى أُمَّ حَرَامٍ، فَأَتَيْنَاهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ فَقَالَ: "رُدُّوا هَذَا فِي وِعَائِهِ، وَهَذَا فِي سِقَائِهِ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ تَطَوُّعاً، فَأَقَامَ أُمَّ حَرَامٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ خَلْفَنَا، وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ فِيمَا يَحْسَبُ ثَابِتٌ، قَالَ: فَصَلَّى بِنَا تَطَوُّعاً عَلَى بِسَاطٍ فَلَمَّا قَضَى صَلاتَهُ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: إِنَّ لِي خُوَيْصَّةً، خُوَيْدِمُكَ أَنَسٌ ادْعُ اللهَ لَهُ، فَمَا تَرَكَ يَوْمَئِذٍ خَيْراً مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَلا الآخِرَةِ إِلاّ دَعَا لِي بِهِ، ثُمَّ قَالَ: **اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ**، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فَأَخْبَرَتْنِي ابْنَتِي أَنِّي قَدْ دَفَنْتُ مِنْ صُلْبِي بِضْعاً وَتِسْعِينَ، وَمَا أَصْبَحَ فِي الأَنْصَارِ رَجُلٌ أَكْثَرَ مِنِّي مَالاً، ثُمَّ قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: يَا ثَابِتُ مَا أَمْلِكُ صَفْرَاءَ وَلا بَيْضَاءَ إِلاّ خَاتَمِي"[4].

ويكشف لنا هذا المشهد شدة اعتناء النبي صلى الله عليه وسلم بالأطفال اليتامى، فالدعاء للطفل من أهمّ مظاهر الإحسان في تربيته، ومن أعظم أسباب السعادة والفلاح، فهو ذو تأثير إيحائيّ كبير في نفس المدعوّ له، فهو يرفع همّته، ويشحذ

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم (1055) .

(2) أي جعلت خمارَها نصفه إزاراً لي ونصفه الآخر رداءً.

(3) رواه مسلم، حديث رقم (4531) .

(4) رواه أحمد، حديث رقم (13104) .

عزيمته، ويحمله على توجّه همّته إلى تحقيق ما يدعى له به؛ ومن ثم يستحبّ للوالدين أن يطلبوا الدعاء لأولادهم من أهل الصلاح والتقوى.

ميدان التربية والتعليم

في ميدان التربية والتعليم – كغيره – يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم عملية التغيير الداخلي هذه في نفسه صلى الله عليه وسلم أولا، فهو "**القدوة الحية**" كي يمارس التربية العملية لأبناء الأمة الإسلامية كلها.

إن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم:**{وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ}**(الضحى:7).. وفي هذه الآية الكريمة يتضح لنا جانب من هذه النقطة الدقيقة حيث جاء سياقها مذكراً اليتيم الهاشمي بما منَّ الله عليه به من قبل؛ فقد نشأ اليتيم الهاشمي في جو مليء بالعقائد المنحرفة، والأوضاع الملتوية النابعة من عادات جاهلية سالفة، لذلك شملته العناية الالهية بإتمام العقل، والهداية، وجعله بالمنزلة اللائقة لتحمل أعباء الرسالة، والسفارة السماوية لأبناء الأرض.

وقد أشارت كتب السيرة إلى دور هذه الرعاية الإلهية في تنشئة النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق: "فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته ورسالته وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جوارًا وأعظمهم خلقًا وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرمًا حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر لي يحدث عما كان يحفظه الله عز وجل به في صغره وأمر جاهليته"[1].

لقد أنكر اليتيم الهاشمي عبادة الأصنام منذ أن عقل، فلم يسجد لصنم قط، بل كان يكره الأصنام منذ نعومة أظفاره، وإننا لا ننسى جوابه للراهب "بحيرا" يوم استصحبه عمه أبو طالب معه إلى بصرى من بلاد الشام وعمره آنذاك تسع سنوات، حيث نزلوا قريبًا منها، فدعاهم الراهب "بحيرا" إلى طعام، ولما حضروا بدأ يتفحص

(1) ابن هشام: السيرة،323/1.

الطفل محمدًا ببصره، ثم قال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عما أسألك عنه، فما كان من الطفل محمد إلا أن انتفض غضبًا وأجاب: **لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما**".

لم يأت اليتيم الهاشمي من أمور الجاهلية بشيء، وقد كان النبي، يقف ضد كل توجه غير صحيح، أو تفكير خاطئ، أو ممارسة سلبية تخالف الحنيفية السمحاء؛ كعبادة الأصنام والأكل مما ذبح لغير الله والحلف بغير الله، فها هو صلى الله عليه وسلم يعلم أطفال بني هاشم جميعًا (اليتامى منهم وغيرهم) صحة العقيدة، والبراءة من كل أنواع الشرك بالله، وقد بدأ جهاده ضد الشرك – بإلهام من الله – قبل البعثة، وفي ذلك يقول زيد بن حارثة رضي الله عنه: "خَرجَ رسولُ اللَّهِ – صلَّى اللَّه عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ – وَهوَ مردفي إلى النُّصُبِ منَ الأنصابِ، فذَبَحنا لَهُ شاةً، ووضَعناها في التَّنُّورِ، حتَّى إذا نضَجتِ استَخرجناها فجعَلناها في سُفرتِنا، ثمَّ أقبلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ يسيرُ.... فأَناخَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ البعيرَ الَّذي كانَ تحتَهُ، ثمَّ قدَّمنا إليهِ السُّفرةَ الَّتي كانَ فيها الثِّواءُ، فقالَ: ما هذِهِ ؟ فقلنا: هذِهِ شاةٌ ذبَحناها لنُصُبِ كذا وَكَذا، فقالَ: إنِّي لا آكلَ ما ذُبِحَ لغيرِ اللَّهِ. وَكانَ صنَمًا من نحاسٍ يقالُ لَهُ: إسافُ وَنائلةُ يتمسَّحُ بِهِ المشرِكونَ إذ طافوا، فطافَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ وطفتُ معَهُ، فلمَّا مررتُ مسَحتُ بِهِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ: لا تمسَّه، قالَ زيدٌ: فطُفنا، فقلتُ في نفسي: لأمسَّنَّهُ حتَّى أنظُرَ ما يقولُ، فمَسحتُهُ، فقالَ ألم تُنهَ؟ قالَ زيدٌ: فوالَّذي أَكْرمَهُ وأنزلَ عليهِ الكتابَ ما استَلمتُ صَنمًا حتَّى أَكْرمَهُ اللَّهُ بالَّذي أَكْرمَهُ، وأنزلَ عليهِ الكتابَ"[1].

وفي حالات أخري تؤكد عصمة اليتيم الهاشمي من الزلل أو الركون إلى الأصنام في صباه وشبابه، فعن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثتي جار لخديجة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخديجة: "**أيْ خديجةُ واللَّهِ لا أعبدُ اللَّاتَ**

(1) صحيح دلائل النبوة، للوادعي: دار الحرمين للطباعة ، ط1، ،القاهرة:2002م، حديث رقم (215) .

والعزَّى، واللَّهِ لا أعبدُهَا أبدًا، قالَ: فتقولُ خديجةُ: خلِّ اللَّاتَ خلِّ العزَّى. قالَ كانَت صنمُهُمِ الَّتي كانوا يعبُدونَ ثمَّ يضطجِعونَ"[1]، وكان لا يأكل ماذبح على النصب[2].

فأنت ترى بوضوح شدة بغض النبي صلى الله عليه وسلم للأصنام، ورفضه أن يأكل مما يذبحه المشركون باسمها، أو نذرًا لها، وعندما كان يطوف بالكعبة المكرمة كان لا يلوث يده بالتمسح بالأصنام، بل كان ينهى غلامه أن يفعل ذلك، وعندما لم يمتثل الغلام للأمر انتهره، وعاود أمره بعدم التمسح بالأصنام، فشب الغلام على ذلك حتى نزل الوحي بالرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم، فآمن به، وصدقه.

العقيدة والعبادات:

وبناء على هذا التوجيه القرآني الكريم كان النبي الكريم يشكر نعمة الله تعالى عليه، وكانت مهمته الأولى هي الحرص على انتشال البشرية من الكفر بشتى ألوانه وأشكاله؛ سواء أكانت وثنية شركية تتعدد فيها الآلهة، أم إلحادًا خالصًا، أم سماوية محرفة، يفترون فيها على الله الكذب، وضمها جمعاء إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، وعبادته حق العبادة على وفق ما أنزل الله عز وجل به الرسل، ومع حرص نبي الإسلام الشديد على دعوة الكبار وتعليمهم التوحيد ورسالة ربه، كان شديد الاهتمام أيضًا بالصغار والأيتام، حيث بعث صلى الله عليه وسلم للناس جميعًا، فأولى نبي الإسلام اهتمامًا كبيرًا لقضية تعليم الأطفال حتى كان يقتطع لهم من وقته ويعلمهم بنفسه.

فالهداية من متممات النعمة، والمنّة عليه، ولذلك عمل النبي الهاشمي على رعاية هذه الجهة بالنسبة إلى يتامى الناس، وانتشالهم من هوة الجهل التي تلازم هؤلاء المساكين الذين باتوا، ولا كافل لهم. لا بد من تطبيق هذا الدرس على اليتامى الناس، وإحتضانهم وهدايتهم بتثقيفهم، وتعليمهم، ورعايتهم من الجوانب التعليمية وجعلهم أداة

---

(1) الصحيح المسند للوادعي، دار الحرمين للطباعة، 1423هـ/2002م: حديث رقم: (1478) .

(2) صحيح السيرة النبوية، ابراهيم العلي، دار النفائس، ط3، 1408هـ-1998م ، ص57.

صالحة، ونافعة في هذه الحياة. فكما هداك من قبل **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ}** (الضحى:7)، فكان لزامًا على نبي الإسلام أن يبذل غاية جهده في توصيل العقيدة الصحيحية إليهم وإلى غيرهم فيكون سببًا في إنقاذهم من النار.. يقول الله تعالى: **{كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}** (الفجر:17). والاكرام بنفسه شامل لكل صور حفظ اليتيم من ناحية حقوقه الاجتماعية سواء فيها الايواء، أو الانفاق، أو التربية والتعليم..

ونوجز كيفيات التربية الإيمانية للنبي صلى الله عليه وسلم للأيتام في التالي:

1. الإيمان بالله:

حرص نبي الإسلام حرصًا شديدًا على أن يرسخ في أذهان الأطفال بما فيهم الأيتام الذين لا عائل لهم الإيمان بالله الواحد الأحد وما يتبع ذلك من عقائد وعبادات، لأنهم لا يجدون من يقوم على تثقيفهم وتعليمهم؛ ولنا أن نتصور الجهد الذي كان يبذله نبي الإسلام في الدعوة إلى الله عز وجل مع الكبار، وجهاد الكفار، ثم بعد ذلك يجد من الوقت والطاقة ما يجعله يجلس للأطفال والأيتام معلمًا وهاديًا يربطهم بالله عقيدة وعملاً، ويتضح ذلك فيما يرويه ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**"[1]، فالنبي صلى الله عليه وسلم خاطب ابن عباس بطريقة منطقية اتبع فيها الإقناع العقلي، فالمعلومة أو المعرفة إذا رتبت وقدمت فيها التبريرات لاقت قبولاً أكثر لدى الطفل وزادت قناعاته بها.

ومعنى: "رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ": أي أنّ ما قُدّر فهو كائن لا محالة.

(1) أخرجه الترمذي: حديث رقم (2516) .

ورواه الإمام أحمد في المسند، وفيه زيادة: "**تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**"[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يباشر إلى الموضوع الذي يريده، فيقول للطفل: "إني أعلمك" فالنبي يعلم الطفل "كلمات " مختصرة مفيدة، لا طول فيها، ولاملل، وذلك انسجام مع طبيعة الطفل الفكرية، التي تتطلب الكلمات القصيرة، الموجزة، الجامعة، الغنية بالمعاني والأفكار.

وإذا تأملنا في طبيعة الكلمات التي وجهها النبي صلى الله عليه وسلم وجدناها تشكِّلُ للطفل قواعد فكرية عقدية، أساسية في حياته الحاضرة الطفلية، وفي شبابه المرتقب بعد حين.

أرأيت إلى جمال هذا الخطاب المباشر الذي ابتدأ في شد انتباه الطفل بكلمة:" يا غلام" التي تثير انتباه الطفل، وتشعره بنشوة اهتمام الآخرين به، مثلما يشعر الشباب عندما يسمعون النداء: " يا معشر الشباب ".

ثم هل رأيت بياناً جامعاً شاملاً، يخاطب عقل الطفل مثل هذا الخطاب؟!وهل قرأت أو سمعت مثل هذه القواعد الكلية التي تؤسس فكر وعقل الطفل ؛لتكون مرتكزاً له في مواجهة أعباء الحياة؟ كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم ليرشد الطفل بخطابه المباشر إلى طريقة عملية، ليتخلص من أدران أمراض القلب كالحسد والبغضاء والحقد والكيد، وذلك بتسلسل فكري عجيب.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فَافْعَلْ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي

(1) أخرجه أحمد: المسند،حديث رقم (2666) .

الْجَنَّةِ"[1]، وهنا استخدم النبي صلى الله عليه وسلم عبارة " يا بني " وذلك لإثارة مشاعر الطفل ن وشد انتباهه له، واستيقاظه إلى سماع الحديث.

وفي استعراض بيان النبي صلى الله عليه وسلم هذا نجد طريقة الإقناع التي استخدمها مع الطفل، وكيف رتب له المعلومات ليحفظها، وتسلسل معه في الحديث ليفهمه، ويستفيد منه في خطاب مباشر له، وفي جو هادئ مريحٍ، وفي إثارة عجيبة بكلمة: " يا بني".

2. الصلاة:

الصلاة من أهم العبادات التي أوصى بها الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، فهي رأس الإسلام وعموده، الصلاة سر السعادة والراحة النفسية وإذا صلحت الصلاة صلح سائر عمل الإنسان وإذا فسدت فسد، لذا اجتهد النبي صلى عليه وسلم أيما اجتهاد في توجيه الآباء إلى تعليم أبنائهم الصلاة لسبع فقال: "**مُرُوا أبْناءكم بالصّلاةِ لسبعٍ، واضْرِبُوهُم على تَرْكِها لِعشْرٍ..**"[2]. لتكون معراجاً روحياً للأطفال، فهي من أسس الإسلام، فلا يوصف المرء به ما لم يؤمن بهذه الأسس.

وقد حرص نبي الإسلام على أن يتعلم الأطفال (اليتامى وغيرهم) الصلاة بنفسه، إذا بلغوا سبع سنين. فقد كان يأخذ أنس بن مالك وإخوته رضي الله عنهم منذ الطفولة بالصلاة، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: ".. **فَرُبَّما حَضَرَ الصَّلَاةَ وهو في بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بالبِسَاطِ الذي تَحْتَهُ فيُكْنَسُ ويُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ ونَقُومُ خَلْفَهُ فيُصَلِّي بنَا**"[3]. فهم يصلون كما يرونه صلى الله عليه وسلم يصلي بهم إمامًا..

---

(1)سنن الترمذي ،حديث رقم: (2678).

(2) أخرجه أبو داود،حديث رقم (495) .

(3) رواه البخاري، حديث رقم (6203) .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الأطفال ما يحتاجونه في الصلاة، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه: "أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ له، فَأَكَلَ منه، ثُمَّ قال: قُومُوا فَلِأُصَلِّ لَكُمْ، قال أَنَسٌ: فَقُمْتُ إلى حَصِيرٍ لنا قد اسْوَدَّ من طُولِ ما لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَصَفَفْتُ أنا وَالْيَتِيمَ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ من وَرَائِنَا، فَصَلَّى لنا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ"[1]، ويذكر ابن حجر العسقلاني، أن قوله: "وَصَفَفْتُ أنا وَالْيَتِيمَ"، وفي رواية فصففت واليتيم بغير تأكيد، والأول أفصح. ويجوز في اليتيم الرفع والنصب[2]، واسم هذا اليتيم ضمير ابن سعد الحميري، والعجوز هي أم أنس أم سليم، زوج أبي طلحة[3].

كان نبي الإسلام يعلمهم حقيقة الخشوع لله، والخضوع له، وكان صلى الله عليه وسلم دقيق الملاحظة لصلاة هؤلاء الأطفال، فإذا أخطأ أحدهم في صلاته وجهه إلى الصواب، وصحح له خطأه، وأرشده إلى علة الحكم الشرعي الذي أخطأ بسببه، وفي ذلك يقول أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يا بُنَيّ إيّاك والالْتِفات فِي الصّلاةِ، فإنّ الالْتِفات فِي الصّلاةِ هلكةٌ، فإنْ كان لا بُدّ ففِي التّطوُّعِ لا فِي الْفرِيضةِ**"[4].

فهنا يحرص نبي الرحمة على تعليم خادمه اليتيم أنس بن مالك رضي الله عنه الخشوع في صلاته، فعلمه كما يعلم الكبار سواء بسواء، لأن الالتفات في الصلاة خلسة من الشيطان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: "**هُو اخْتِلاسٌ يخْتلِسُهُ الشيْطانُ مِنْ صلاةِ**

---

(1) رواه البخاري،حديث رقم(3999) .

(2) فتح الباري، 490/1.

(3)صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، ط1،1347هـ-1929م ، 164/5.

(4) أخرجه الترمذي، حديث رقم (589) .

الْعبْدِ" [1]، فالشيطان اللعين يسترق من صلاة العبد التفاته فيها حتى يدخل عليه بذلك النقص والخلل في صلاته.

إن تعليم النبي الكريم لأنس بن مالك رضي الله عنه كان برفق وحنان، فقد بدأه بكلمة "**يا بني**" لما فيها من الحنان والرقة، وتأثير ذلك في نفس هذا الطفل اليتيم كالسحر، فهي تنسيه يتمه، وتجعل المعلم أبًا مربيًا حانيًا يقول له يا بني، ثم جاء بكلمة "**إياك**" وهي كلمة تحذير، ولذلك تستخدم عادة في النهي الشديد، ثم فسر النبي صلى الله عليه وسلم له سبب هذا النهي الشديد عن الالتفات فقال له: "**فإنّ الالْتِفات فِي الصّلاةِ هلكةٌ**"؛ فإنه يشعره بالخوف عليه من هذه الهلكة التي يضع نفسه فيها، فهي تعليل للنهي، والتعليل مهم في عملية الإقناع، ففيه احترام للمخاطب وحقه في المعرفة، واحترام لعقله ولو كان طفلًا صغيرًا.

وكانت النتيجة النهائية لهذا التعليم النبوي أن تعلم أنس بن مالك الدرس جيدًا، وعلم أهمية الخشوع في الصلاة، فهي تقوية لإرادته وطهارة لنفسه وروحه، فكانت صلاته شبيهة تمام الشبه بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم، ويخبرنا بذلك الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: "ما رأيْتُ أحدًا أشبه بِصلاةِ رسُوْلِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم مِنِ ابْنِ أُمِّ سُلَيْمٍ –يعْنِي: أنسًا"[2].

وهذا أيضًا ما أكده الإمام محمد بن سيرين بقوله: "كان أنسُ بنُ مالِكٍ أحسن النّاسِ صلاةً فِي الحضرِ والسّفرِ"[3].

ويتبع الصلاة الوضوء وقد حرص نبي ال'سلام على تعليمه للأطفال ، و يحدثنا الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه: أنه توضأ فغسل وجهه ثم أخذ غرفة من ماء فمضمض بها واستنشق ثم أخذ غرفة من ماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم(751) .

(2) مسند أحمد، برقم (12661) .

(3) ابن سعد: الطبقات، 10/7.

الأخرى فغسل بهما وجهه ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء فرش بها على رجله اليمنى حتى غسلها ثم أخذ غرفة أخرى فغسل بها رجله يعني اليسرى ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ[1].

3. الصيام:

صوم رمضان عبادة وتقوى خالصة لله تعالى، وتزكية للنفس المؤمنة، وهو أيضاً رياضة روحية وأخلاقية للنفس والبدن، ولكن الرحمة ترجئ القيام بهذا التكليف، إلى وقت مناسب لظروف الشخص المكلف به، مثل الصيام بالنسبة للطفل الذي لم يصل إلى سن البلوغ، وقد أقر نبي الإسلام الصحابة على تدريب الصبيان المميزين على الصيام، حتى يعتادوه، ولم ينههم عنه فعن الرُّبيِّع بنت معوِّذ قالت: "أَرْسل النّبِيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم غداة عاشُوراء إِلى قُرى الأَنْصارِ: "**مَنْ أَصْبح مُفْطِرًا، فَلْيُتِمّ بقِيّة يوْمِهِ ومَنْ أَصْبح صائِمًا، فليصُمْ**"، قالتْ: فكُنّا نصُومُهُ بعْدُ، ونُصوِّمُ صِبْيانَنا، ونجْعلُ لهُمُ اللُّعْبة مِن العِهْنِ، فإِذا بكى أَحدُهُمْ على الطّعامِ أَعْطيْناهُ ذاك حتّى يكُون عِنْد الإِفْطار"[2].

إن إكمال الصبي لصيام اليوم له تأثير عظيم في نفسه، فهو يعلمه الرجولة منذ نعومة أظفاره، فانتصاره على الجوع والعطش يكسبه شعورًا بقوة الإرادة، وأنه بإمكانه أن يفعل أعمالاً عظيمة، كما يفعل الكبار، وهو في هذه السن الصغيرة، وبالتالي يقوى على مواجهة مصاعب الحياة وآلامها، كما أنه تدريب له قمع شهواته ورغباته، صابرًا على ما يصيبه من الأحداث، لأنه تعلم في مدرسة الصبر العظيمة، ألا وهي الصيام.

كما حرص نبي الإسلام أن يعلم الأطفال الأعذار المُبِيحة للفطر في رمضان؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "رجُلٌ مِنْ بنِي عبْدِ اللّهِ بْنِ كعْبٍ قال:

---

(1) أخرجه البخاري، حديث رقم (140)

(2) رواه البخاري، حديث رقم (1960) .

أغارتْ عليْنا خيْلُ رسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم، فأتيْتُ رسُول اللّهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم، فوجدْتُهُ يتغدّى، فقال: "**ادْنُ فكُلْ**"، فقُلْتُ: إنِّي صائِمٌ، فقال: "**ادْنُ أُحدِّثْك عنِ الصّوْمِ، أوِ الصِّيامِ، إنّ اللّه تعالى وضع عنِ المُسافِرِ الصّوْم، وشطْر الصّلاةِ، وعنِ الحامِلِ أوِ المُرْضِعِ الصّوْم أوِ الصِّيام**"[1].

4. أحكام الحج:

على الرغم من أن الحج ليس واجبًا على الطفل قبل بلوغه، إلا أنه من المقرر شرعًا أن الطفل إذا حج فإن حجه صحيح، ويكتب له نافلة، سواء أكان صبيًّا مميزًا عقد نية الإحرام للحج بنفسه، أو كان غير مميز وأحرم عنه وليه، وطاف وسعى به، ورمى عنه، فعن بن عباس رضي الله عنه قال: "**رفعتْ امْرأةٌ صبِيًّا لها فقالتْ يا رسُول اللهِ، ألِهذا حجٌّ؟ قال: "نعمْ ولكِ أجْرٌ**"[2].

ومن هنا فقد حرص الصحابة الكرام على اصطحاب أبنائهم في فريضة الحج، كما حج أطفال بني هاشم مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وأذن لهم صلى الله عليه وسلم في الخروج، فأداء الأطفال لمناسك الحج ينمي فيهم جوانب الرجولة، والاعتداد بأفعالهم، ولو كانوا أطفالا، كما تعودهم على الصبر العبادات، وضبط اللسان والقلب والجوارح عن كل ما يحرم، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال؛ وقد حرص صلى الله عليه وسلم على الرغم من كونهم أطفالا أن تكون عبادتهم على أتم وجه، فيفعلون الأفضل في توقيت المناسك.

وفي هذا الصدد يقول ابن عباس رضي الله عنه: "قدّمنا رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم ليْلة الْمُزْدلِفةِ أُغيْلِمة بنِي عبْدِ الْمُطّلِبِ، على حُمُراتٍ فجعل يلْطخُ أفْخاذنا، ويقُولُ: "**أُبيْنِيّ لا ترْمُوا الْجمْرة حتّى تطْلُع الشّمْسُ**"[3].

---

(1) أخرجه ابن ماجه، حديث رقم (1667) .

(2) أخرجه مسلم،حديث رقم (1336) .

(3) أخرجه أبو داود، حديث رقم (1940) .

فالحديث واضح في رفق نبي الرحمة؛ إذ أخذ يثير انتباههم بلطخ أفخاذهم (الضرب الرفيق على سبيل الملاطفة) وخاطبهم بتودد ورحمة، وهو يقول لهم: "أُبيني" وهي تصغير "بني" وهذا تصغير للتدليل والترخيم، وفي ذلك درس تربوي لكل معلم، فلا بد من مراعاة التلطف للطفل عند تعليمه، وإشعاره بالمحبة، والقرب من المعلم المربي. وقد وضعنا هذا الحديث ضمن تعليم اليتامى؛ لأن صبيان بني عبد المطلب كان فيهم الأيتام قطعًا، كأبناء الشهداء من مثل أبناء حمزة بن عبد المطلب وأبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وعن ذريتهما، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم جميعهم أن ينتظروا حتى تطلع الشمس يوم النحر، كي يرموا جمرة العقبة الكبرى، وهو الوقت المفضل للرمي.

قراءة وحفظ القرآن:

إن أعظم مصدر للعلم لدى المسلم القران الكريم ولذا دأب النبي الكريم إلى حث صحابته على تعليم أبنائهم القرآن الكريم في سن مبكرة ، عن عُثْمَانَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" خَيْرُكُمْ من تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "[1]..و مما ورد من حرص نبي الإسلام على تعليم الأيتام القرآن الكريم، أن ربيبه عمر بن أبي سلمة الأسدي أتم حفظ القرآن في بيت النبوة ولم يتجاوز التاسعة من العمر، ولا عجب في ذلك فقد كان يأخذ القرآن من فم النبي صلى الله عليه وسلم غضًّا طريًّا، وكان يعيش في كنفه صلى الله عليه وسلم، فلم لا يتم حفظ القرآن في هذه السن الصغيرة.

قد أفصح النبي صلى الله عليه وسلم عن حرصه الشديد على تعليم القرآن والعقائد للأطفال منذ نعومة أظفارهم فيروي لنا عبد الكريم أبو أمية، فيقول: كان رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم "يُعلِّمُ الْغُلام مِنْ بنِي هاشِمٍ إذا أفْصح سبْع مرّاتٍ: **{الْحمْدُ لِلّهِ الّذِي لمْ يتّخِذْ ولدًا، ولمْ يكُنْ لهُ شرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}** (الإسراء:111) إلى آخِرِ السُّورةِ"[2].

---

(1)سنن الترمذي ،حديث رقم: (2907).

(2) مصنف عبدالرزق، حديث رقم (7976) .

إنّ تعلّم القرآن الكريم حرز من العذاب العاجل في الدنيا، لأنّ المجتمع الذي يتعاهد أطفالَه بالقرآن يُرجَى له أن يتحوّل قريباً عن الفساد؛ ولذلك كان بعض السلف يمرّ على كتاتيب القرآن، ويسلّم على الأطفال، ويطلب الدعاء منهم، وإذا التقاهم في الطريق سلّم عليهم، وطلب منهم الدعاء. ويقول جُندب: "كُنَّا معَ النَّبِيِّ – صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ – ونحنُ فتيانٌ حَزاوِرَةٌ، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعَلَّمَ القرآنَ ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازدَدنا بِه إيمانًا"[1].

طلب العلم:

لم يتلق اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم أي نوع من التعليم قبل البعثة، لا من راهب ولا كاهن ولا فيلسوف ممن ظهروا على عهده..و من المؤكد أن المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه لم تنقدح في نفس النبي صلى الله عليه وسلم دون إعداد إلهي سابق له وتهيئة من الحكيم العليم..

قد نجد أن بعض الببغاوات تردد ما تسمع دون وعي..ونشاهد أطفالاً صغارًا يلقون – بإتقان وتمثيل –خطبًا دقيقة لأشهر الزعماء والقادة..فلا الأطفال – بما استحفظوا من كلام الأئمة والقادة – أصبحوا رجالاً ، ولا الببغاوات تحولت بشرًا..

ونحن موقنون من مطالعة سيرة اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم بأنه طراز فريد من الفكر الصائب والنظر السديد ، وأنه – قبل رعي الغنم وبعده ، وقبل احتراف التجارة وبعدها – كان يعيش يقظ القلب في أعماق الصحراء ، واعيًا مستيقظًا بين السكارى والغافلين.. وكان جو الجزيرة العربية يزيد خمول الخامل وبالتالي يزيد من وحدة اليقظان..فكان اليتيم الهاشمي يستعين بصمته الطويل –الموصول بالليل والنهار والمطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل– على التأمل وإدمان الفكر واستكناه الحق..فارتقت نفسه بالنظر الدائم في ملكوت السماوات والأرض فازداد علمًا يقينًا لا

(1) أخرجه الوادعي: الصحيح المسند، حديث رقم(285) .

حفظ فيه..ومثله في احترام الحقائق الكونية والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها.

لعل في عمل اليتيم الهاشمي بالرعي والتجارة، وسفره إلى الشام واليمن أثرًا كبيرًا في أن تعرف على كثير من العادات، ومعاشرة الجماهير.. فكان ذلك تعويدًا له على كيفية أن يتعامل مع الناس يسوس أشدهم ، ويرفق بأضعفهم ويسهر على حمايتهم.. ولما لا وقد طالع في سفرياته – بعقله الخصب وفطرته الصافية السليمة – صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف منها ما ساءه من خرافة، ونأى عنها وعاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجده حسنًا شارك فيه بقدر، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، يتابع النظر الدائم في ملكوت السموات والأرض، وذلك أجدى عليه من علوم هي بالجهل المركب أشبه، ومن مجتمع فقد الهداة من قرون، فهو يضم ضلالاً جديدًا إلى الضلال القديم كلما مرت عليه ليلة وطلع صباح.

لقد هيأ الله الظروف لمحمد بن عبد الله اليتيم الهاشمي – منذ كان طفلاً يرعاه جده عبد المطلب – أوضاعًا ممتازة للتثقيف.. فكان مجلس الجد مهيبًا لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه أي أعمام النبي مهابة له.. وقد عكف اليتيم محمد صلى الله عليه وسلم الجلوس بجوار جده وعلى فراشه حيث يحضر مجلسه رجال من أهل مكة الذين بلغوا شأوًا بعيدً في بعد النظر والحكمة، لذا أصبح محمدًا – مع أميته – مشتهرًا بالذكاء والفطنة، والألمعية ولطف المشاعر، وإرهاف الحس.

ولا شك أن جسارة اليتيم الهاشمي في جلوسه مع مثقفي قومه أكسبته مهارة مواجهة الجمهور منذ صغره، وكيفية محادثة الناس، وهي من أهم مهارات الداعية إلى الله، فكيف بنبي الله صلى الله عليه وسلم؟

لقد ربى الله محمداً بن عبد الله اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم ليربى به العرب، وربى العرب ليهذب بهم العالم أجمع **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا**

مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (آل عمران:164). لذا حرص نبي الإسلام أن يكون التعليم فريضة على المسلم، يقول صلى الله عليه وسلم: "**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**"[1]، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يخصص حديثه لجنس معين أو عمر معين، يتساوى في ذلك الذكر والأنثى، وبالتالي فإن المجتمع الواعي هو الذي يهتم بتعليم الأطفال والنهوض بهم، فتعليم الطفل فريضة وواجب، ومن حق الطفل أن يتعلم، ولا سبيل للأمة إلى التهرب من هذا الواجب. وعلى طالبِ العلم أن يكون أشد طلبًا له من طالبِ الدَّم.

إن هذا التحول الكبير، والنجاح العظيم، الذي حققه صلى الله عليه وسلم في صناعة الأمة وجيل الصحابة، حتى ارتفعت أمة العرب من الدرك الأسفل إلى أعلى القمم ، كان نتيجة منهج تربوي تعليمي دعوي رصين، له معالمهُ وسماتهُ، لقد رأي نبي الإسلام إن السبيل إلى خيرية الأمة، ونهضتها الرسالية، وقوتها ومنعتها المعنوية والحضارية يكمن في التعليم الذي هو مناط دعوته ورسالته يقول تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}** (الأحزاب:45-46).

لم تقتصر دعوة نبي الإسلام للتعليم على علم دون آخر ما دام هذا التعلم نافعًا للإنسان، لذا فالتركيز في التعليم على العلم الديني وتعلم العلوم الأخرى في ضوء مبادئه ومعاييره ما دامت هذه العلوم تحقق المنفعة للطفل، وتمتاز التربية النبوية بأنها لا تؤجل ذلك إلى مراحل متأخرة من حياة الإنسان، وتهمل مرحلة الطفولة، فإن مفاهيم العقيدة، والوعي على سماع القرآن، وتمثل تعاليمه، وحب النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء بتعاليمه كلها أمور اهتمت بها السنة النبوية في مراحل مبكرة، وما حديث ابن عباس: "**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك**" عنا ببعيد.

---

(1) أخرجه ابن ماجه، حديث رقم (224) .

لقد تضمن العلم الديني الذي علمه نبي الإسلام للأطفال جوانب تختص بمجال العقيدة، فعن أبي رافع رضي الله عنه قال: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذَّنَ فِي أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ حِينَ وَلَدَتْهُ فَاطِمَةُ بِالصَّلَاةِ"[1]، ومن التعليم الديني أيضًا جوانب كانت تتعلق بالعلم بالقرآن الكريم، فيتعرّف الطفل مبكراً على الصالحين الذين ورد ذكرهم، أو ذكر قصصهم في القرآن الكريم وعلى رأسهم أنبياء الله تعالى، الأمر الذي يجعله قادرًا على اتّخاذ هؤلاء العظماء قدوات له؛ يتأسى بهم، ويسير على نهجهم، ويُطيع الله تعالى كما أطاعوه هم؛ وبناء على ذلك يشبّ الطفل الصغير على الأخلاق الحميدة؛ فالقرآن يُعتبر أفضل مُهذِّب لأخلاق الإنسان، ومقوِّم للسلوك؛ خاصّةً إن اقترن حفظه مع تَعَلُّمه.

إن قراءة القرآن هي سبيل الرقي في الدنيا وسبيل الرقي في الآخرة.. " اقرأْ وارقَ".. فسماء الإنسان تظلم وتضيء من داخله بأغراضه ومعانيه.. والله –تعالى– قد خلق للعالم الأرضي شمسًا واحدة تنيره وتحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وغمامها وسحائبها وما تسفر به وما تظلم فيه.. ولهذا سمي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس، ووصف المؤمنون بأنهم **{يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}** (الحديد:12)، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نورًا يشمون به.. لذا حرص نبي الإسلام على ضرورة أن لا تكون قراءة القرآن الكريم وحفظه في العقل فقط، بل حفظه في العمل به، فإن المسلم إن أثبت الآية منه، وكان يعمل بغير معناها، ويعيش في غير فضيلتها، فهذا – ويحه – نسيانها لا حفظها.

وجاء في الآثار النبوية التي تدعو الى التلقين والتحفيظ المبكر للطفل ما روى الإمام عبد الرزاق في مصنفه[2]قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام

---

(1) أخرجه الترمذي حديث رقم (1514).

(2)مصنف عبد الرزاق 334/4.

من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}(الإسراء:111).

يعد النبي – المُعَلِّمُ – صلى الله عليه وسلم ثالث الأبوين لذا بعد وفاته ينادي المنادي. هاهُم يقتسمونَ ميراثَه في المسجد.. وهل لا يُحب أحد أن يكون من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؟!.

الدفاع عن النفس:

من أهم جوانب التربية الأخذ بأسباب القوّة، وإتقان مهاراتها، والتشجيع على ذلك جزء أساسيّ من منهج نبي الإسلام في بناء الشخصيّة وإعدادها، والأمّة الجادّة في بناء نهضتها تضع أبناءها في هذا المسار منذ نشأتهم الأولى، لأنّ قوّة نشاطهم هي امتداد بقائها وقوّتها، ولا قيمة لأمّة لا قوّة لها.. فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ، يَنْتَضِلُونَ[1] فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلانٍ**"، قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "**مَا لَكُمْ لا تَرْمُونَ؟** " قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ. ؟ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "**ارْمُوا، فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**"[2].

لقد سعى نبي الإسلام إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء، رجالاً ونساءً وصبياناً وشباباً وشيوخاً، إلى التمرس على كل مهارة في القتال طعناً بالرمح وضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان النبي القائد يمزج خطى التربية العسكرية المتوازنين: التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على اتقان ماتعلموا من فنون الرماية قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**مَن عَلِمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فليسَ مِنَّا، أوْ قدْ**

(1) نَضَل ينضُلُ سبق وغلب في الرماء، وانتضل القوم استبقوا في الرمي، كما في المعجم الوسيط.
(2) رواه البخاريّ، حديث رقم (2684) .

عَصَى"[1]، فهي دعوة إلى عموم الأمة وحتى من دخلوا في سن الشيخوخة على دربتهم في إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة، إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها ويوجهها نحو المعالي وعلو الهمة.

وكان صلى الله عليه وسلم منتبهًا لمكائد أعداء الدين والدولة ، لذا حرص بأن يعد لهم ما استطاع من قوة ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قال اللهُ: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلَا إِنَّ القوَّةَ الرميُ، أَلَا إِنَّ القوَّةَ الرميُ" [2].

وهكذا ربى النبي الكريم أصحابه على تحصيل القوة وإليك صورًا من هذه التربية:

أ. سباق الخيل: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سابَقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين الخيلِ التي قد أُضمِرَتْ، فأرسَلَها من الحَفياءِ، وكان أمَدُها ثَنِيَّةَ الوَداعِ [3] – فقُلْتُ لموسى: فكم كان بين ذلك؟ قال: ستةُ أميالٍ أو سبعةٌ – ،وسابَقَ بين الخيلِ التي لم تُضمَرْ، فأرسَلَها من ثَنِيَّةِ الوَداعِ، وكان أمَدُها مسجدَ بني زُرَيقٍ [4].قُلْتُ: فكم بين ذلك؟ قال: مِيلٌ أو نحوُه – وكان ابنُ عُمَرَ ممن سابَقَ فيها [5].

ب. التدرب على الأسلحة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما الحبشة يلعبون عند النبي صلى الله عليه وسلم بحرابهم، دخل عمر فأهوى بالحصى فحصبهم بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**دعهم يا عمر**"[6]. وقد صح في رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سمح لعائشة رضي الله عنها أن تنظر إلى لعبهم وهي

---

(1) أخرجه مسلم: حديث رقم: (1919) .

(2) أخرجه الطبري: تفسير الطبري، 40/2/6.

(3) وكان بين ذلك ستة أميال أو سبعة.

(4) وكان بين ذلك ميل أو نحوه.

(5) أخرجه البخاري، حديث رقم (2870) .

(6)أخرجه البخاري، حديث رقم (2901) .

مختبئة خلفه صلى الله عليه وسلم[1]. وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لرافع بن خديج بالقتال معه يوم أحد وهو صغير، ورد أقرانه؛ وذلك لأن رافعًا كان ماهرًا في الرماية. والمهارة لا تأتي بدون تدريب. وفي زمن الجيش النظامي والشرطة النظامية لا يكون امتلاك الأسلحة والتدرب عليها فوضويًا فيعم الفساد. بل وفق الضوابط والمعايير التي يضعها أصحاب الحل والعقد.

جـ. المصارعة: لقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم لسمرة بن جندب أن يصارع رافعَ بْنَ خَدِيج, فلما صرع سمرة رافعًا، أذن له صلى الله عليه وسلم بالخروج معه للقتال يوم أحد. وقد كان أذن لرافع لكونه راميًا[2].

وإن المتأمل في رواية سمرة بن جندب يرى أن الرد في بداية الأمر كان بسبب الصغر، وهنا نعلم أن لا يجوز للصبي الصغير مباشرة القتال إلا إذا توافرت له القدرة البدنية على ذلك, لذا رد النبي صلى الله عليه وسلم سمرة ورافعًا لصغر سنيهما في بادئ الأمر، ولكن عندما قيل له: إن رافعًا ماهر في الرمي، أجازه و لما قيل له: إن سمرة يصرع رافعاً أجازه. ويشترط في المجاهد أن يكون بالغاً تحقيقاً للقدرة على القتال..يقول إبن عمر رضي الله عنهما: "**عُرِضْتُ عَلَى النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– يَوْمِ بَدْرٍ وَأَنَا ابْنُ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْنِى فِى الْمُقَاتِلَةِ وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْنِى فِى الْمُقَاتِلَةِ وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ فَأَجَازَنِى فِى الْمُقَاتِلَةِ**"[3].

لقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم سن الجهاد بسن خمس عشرة سنة حيث في هذا السن غالباً يكون الطفل قد وصل إلى مرحلة البلوغ ودخل في طور الفتوة والقدرة على القتال.

---

(1)أخرجه البخاري، حديث رقم (3530) .

(2) السيرة النبوية لابن هشام، (12/4) بدون إسناد.

(3) البخاري، حديث رقم: (2521) .

وذكر ابن الأثير "أن عمير بن أبي وقاس, قديم الإسلام، مهاجري شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقتل بها شهيداً، واستصغره النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد المسير إلى بدر, فبكى فأجازه, وكان سيفه طويلاً, فعقد عليه حمائل سيفه، قال سعد: رأيت أخي عميراً قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوارى فقلت ما لك يا أخي قال: أخاف أن يستصغرني رسول الله فيردني و أنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة فرزق ما تمنى "[1].

لم يستغل النبي صلى الله عليه وسلم اليتيم ويحمله مالا طاقة له به، و لم ينظر إليه على أنه وقود لمعركة، أو وسيلة لتحقيق الأهداف، بل كان رحمةً من الله به، لأنه بالنسبة إليه هو المعركة التي يقاتل من أجلها، وما هو بوقود لها، وهو الهدف، وما كانوا يوماً وسيلة بيده، بالمعنى الذي نرى آثاره السلبية في سير كثير من القادة العظماء، فأين هذه الأخلاق النبيلة من حسرة آلاف الأمهات اليوم، ومن صرخاتهم، وهن يشاهدن أبناءهن يساقون إلى المعارك، دون علمهن، ودون مشورتهن، وكم نرى في وسائل الإعلام يومياً صوراً لأمهات ثكلى يصرخن، وهن يحملن صور أبنائهن، إما لأنهم قتلوا، أو أسروا، أو فقدوا، ولا أحد للأسف يسمع لهن، أو يمسح دموعهن، أو يقدر وضعهن، ولا تكاد تخلو بلد فيها حروب من هذه المناظر المؤسفة، ولا من جماعات وجمعيات لأمهات القتلى تطالب بالرحمة ولا مجيب.

وفي قصة جابر بن سمرة ذلك الغلام الذي قارن نفسه بمن أجازه النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف رده صلى الله عليه وسلم وأجاز الآخر مع أنه يصرع؟!.. نزول المربي إلى مستوى الاهتمامات الشبابية، والشورى التربوية وتمكين للفتى من إبراز مواهبه في صقل التجربة، فأباح لهما النبي المصارعة فتصارعًا فصرع من رُدَّ من أجيز، وهنا أجازه النبي صلى الله عليه وسلم عن نجاح في الاختبار، فالتربية بالتواصي لا تجعل التربية وقفاً على المربين إذ إن للتلميذ دوره ورأيه، ولولي الأمر دوره ورأيه، ويكون للمجتمع كله سلطة التوجيه للتربية فلا استبداد لفرد، وإنما التربية جماع

(1) أسد الغابة ، لابن الأثير ،122/4.

اهتمامات القيادة والتلاميذ أو أولي الأمر والمجتمع؛ ولذا جعلها الإسلام مبدءاً حيوياً في التربية وفي غير التربية.

ولكن على الرغم من هذه التحفظات الشديدة في عدم تجنيد الصبيان دون الخامسة عشر إلا أننا نجد أسامة بن زيد رغم صغر سنه فقد شهد المعارك والغزوات مع النبى صلى الله عليه وسلم وبرغم أن النبي رده يوم أحد لصغره إلا أنه يوم الخندق أخذ يتطاول ويشد من قامته، حتى رق له النبي وأجازه فحمل السيف مجاهدًا فى سبيل الله، وفي يوم حنين حين انهزم المسلمون ثبت أسامة مع العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم، فحولت هذه الفئه القليلة الهزيمة إلى نصر للمسلمين، ويوم مؤتة انضوى أسامة تحت لواء أبيه، وشاهد بعينيه استشهاد أبيه ومن بعده جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة، وشاهد كيف حول خالد بن الوليد الدفة لمصلحة المسلمين وعاد بهم الى المدينة.

وقبل أن يلحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى عبأ جيشًا لغزو الروم وجعل فيه أبا بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وغيرهم من عظماء القادة وأمر على الجيش أسامة بن زيد وهو ابن السابعة عشر ولكن المرض اشتد على النبى الكريم ، فانتظر أسامة ليعرف ما يكون من أمر النبى صلى الله عليه وسلم، ولكن النبى اختار جوار ربه.. فمن هو هذا الفتى الذى يختاره النبى صلى الله عليه وسلم لقيادة جيش من الصحابة تعدى الثلاثين ألف صحابي؟

لا يشك أحد في أن ممارسة الطفل للرياضة هي إحدى الوسائل التي يرتقي بها الطفل إلى استخدام عقله وجسده من خلالها، فهي توفر للطفل اكتساب الجسم الرشيق ومرونة الحركة والقدرة على التعلم بصورة سليمة.. كما أن تعلم فنون القتال يعد مصدرًا لاكتساب الأطفال الثقة بالنفس والالتزام الشخصي، ويجعلهم أكثر هدوء واسترخاء، ويتساعدهم على بناء شخصية قوية لديهم مبكرًا، وتعلمهم فن التعامل مع الناس والانخراط معهم، وكأنهم أشخاص كبار، وتغرس في نفوسهم القوة وعدم الخوف من أي شيء، يقول تعالى: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ**

عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ} (الأنفال: 60). وجاءت النصوص دالة على تفضيل المؤمن القوي على الضعيف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجِز**"[1].

اكتشاف المواهب:

إن أغلب البشر فيهم خير مخبوء في كينونتهم لكنهم يحتاجون –فقط– إلى من يحسن مخاطبة هذا الخير، واستخراجه وإظهاره –بإذن الله تعالى–، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خير من يستخرج كينونات أنفس النشء، ولعل في قصة زيد بن ثابت الأنصاري ما يؤكد ذلك، فقد جاء زيد بن ثابت وهو ابن الثالثة عشرة سنة, يجر سيفًا أطول منه, ووقف يستتر من النبى مخافة أن يرده النبى لصغر سنه وضآلة جسمه، ومع هذا التستر والاختباء خلف الصفوف، يراه النبى صلى الله عليه وسلم، ويرى ضعفه وصغر سنه، فيرده بلطف وينطلق الجيش إلى بدر لقتال المشركين، ويعود الفتى إلى أمه "النوار بنت مالك" مهمومًا تملك الحسرة فؤاده؛ لكونه لم ينل شرف الجهاد مع النبي صل الله عليه وسلم، ولم يعلم بعد ما سيكلفه به من المهام الجسام التي تتناسب مع مواهبه وملكاته، وسرعة بديهته على الحفظ والاستظهار... ولكن النبي لاحظ قدرات هذا الغلام الثاقبة على الحفظ، وبديهته الواعدة، من خلال حفظه لسور القرآن الكريم؛ لذا فقد تم توجيهه لدراسة العلوم التي تعتمد أساسًا على القدرة على الحفظ والاستظهار، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: "**يا يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**"[2].. فقال: لبيك يا رسول الله. وبعدها أكب الفتى على العبرية لغة اليهود فحذقها فى عدة أيام, نعم في أيام قليلة، وكان زيد بن ثابت يتحدث العبرية ويكتبها ويقرأ بها كأنه أحد أهلها فجعل يكتب رسائل النبى صلى الله عليه وسلم لليهود ويقرؤها له إذا هم كتبوا اليه.

---

(1) رواه مسلم: حديث رقم(2664) .

(2) مسند أحمد برقم (21618).

فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى ملوك العجم أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية بأمر من النبي الكريم كما تعلم العبرية وبذلك أصبح الفتى زيد بن ثابت ترجمان النبى صلى الله عليه وسلم.

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم براعة زيد بن ثابت في القراءات والفرائض، اصطفاه صلى الله عليه وسلم ليكون أحد كتبة الوحي الإلهي عليه فشرفه وشرف قومه كلهم بهذا الفضل، لقد تعامل النبي مع الطبيعة الإنسانية بكل مكوناتها، وجدلياتها وسمتها وتغيراتها، ومن ذلك العوامل الفطرية والمكتسبة التي تؤثر في طبيعة الأداء والفعل الإنساني ومستوياته.

وازداد اتصال هذا الفتى اليتيم زيد بالسماء، ولما لا وهو يجلس إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون أول من يسمع منه أيات الله، وقد نزلت توا من السماء فيكتبها.. كل هذا وهو يعد فتى ما زال أقرانه يلهون فى طرقات المدينة، ولكنه أراد لنفسه الجنة، والمنزلة العالية ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم، فتحمل أمانة الوحي، وكتابة القرآن الكريم.

وهكذا فتحت كنوز البيان أمام الفتى ينهل منها ما يريد، فها هو يتلقى الوحى من فم النبى صلى الله عليه وسلم رطبًا طريًا، موصولاً بأسباب النزول وأحكام القرآن، ووعى من علومه وأسراره الكثير، حتى أصبح إمام الصحابة في علم الفرائض (المواريث) بشهادة النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم له، فيقول لهم[1]: «**أفرضكم زيد**».

وبهذه الذاكرة الفولاذية والقدرة على الاستيعاب والفهم كان سيدنا زيد هو المسئول الأول الذي لجأ إليه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في مهمة جمع القرآن في عهده في مصحف واحد، ليس ذلك فحسب بل تبوأ زيد مكانة مرموقة بين علماء الصحابة، فكان من الستة الذين عليهم مدار الفتوى

(1)الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة مصر 2/ 492.

في المدينة وهم: **عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبيّ، وأبو موسى، وزيد بن ثابت**[1]. (ابن حجر: الإصابة).

ولعل في قصة الصحابي الجليل أبي محذورة، صاحب الصوت الجميل الذي كان يستهزئ بأذان المسلمين، ما يؤكد عظمة النبي صلى الله عليه وسلم في استخراج مواهب النشء، ولنترك المجال لأبي محذورة يقص علينا هذا المشهد الرائع فيقول: "كنت مع أصحابي عاشر عشرة من مكة نلعب قرب مكة، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عائدون من غزوة حنين، فلما اقترب منا طلب من أصحابه أن يستريحوا في هذا المكان، ثم طلب من المؤذن أن يؤذن في الناس إلى الصلاة. وانطلق صوت بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأ جنبات الوادي، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستعدون للصلاة. في هذا الوقت كنت لا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم! فرحت أسخر مع أصحابي من أذان المؤذن بترديد ما يقوله بلال. وارتفع صوتي عاليا وأنا أردد ما يقوله المؤذن مستهزئًا، فسمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

– لقد سمعت في هؤلاء تأذين إنسان حسن الصوت. فأرسل إلينا فأذنًا رجلاً رجلاً، فكنت آخرهم.

وفى رواية أخرى: فأرسل في طلبنا، فلما وقفنا بين يديه خفنا منه، فكنت أكثرهم خوفًا. فقال صلى الله عليه وسلم وقد ملأت الابتسامة وجهه:

– أيكم سمعت صوته وقد ارتفع بالأذان قبل قليل؟

أشار أصحابي كلهم إلي، فقال: أما أنتم أيها الشبان ارجعوا، وابق أبا محذورة في مكانك.

خفت خوفاً شديداً، حتى كاد قلبي يسقط على الأرض من شدة الخوف، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلي وتبسم، ومرر يده الشريفة على رأسي

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وصدري، فزال ما بي من خوف. ثم طلب مني أن أؤذن في المسلمين بعد أن علمني الأذان.

ودخل حب رسول الله قلبي فلم يعد يتسع لأحد بعده! وفي رواية يقول: "فقمت، ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرني به، فقمت بين يديه، فألقى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو بنفسه، فقال: قل: الله أكبر الله أكبر. فذكر الأذان، ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصيتي، ثم من بين ثديي، ثم على كبدي، حتى بلغت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم سرتي، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**بارك الله فيك، وبارك الله عليك**"، فقلت: يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة، قال " **قد أمرتك به**". وذهب كل شيء كان في نفسي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. وبقي مؤذن مكة حتى مات"[1].

فما أبعد الفرق بيننا وبين سلفنا! كان رجالهم يَرفعون قدْر الأطفال ويُشَجّعونهم، لأنّهم عدّة الأمّة ورجال المستقبل.. وفينا من يحطّ من أقدار الرجال، ويحطّم مواهبهم! فالثنَاء على الطفل بما فيه بدونِ مبالغةٍ، مدعاة له لرفْع همّته، وحرصه على الازْدياد من الخير.

أدب لا قهر:

وهناك جهة عالجها الحكيم الخبير، فأولاها عناية وأكد عليها وهي الرفق باليتيم في التحدث معه، والابتسامة في وجهه لتبعد بذلك عنه الانكسار الذي يشعر به، والذل الذي يحيط به من جميع جوانبه. **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ}** (الضحى: 9). درس بليغ في التحذير من قهر اليتيم فلماذا هذا التطاول عليه، ولماذا هذا العبوس في وجهه وهو صبي لا ذنب له. والآية الكريمة تخاطب اليتيم صلى الله عليه وسلم وحاشاه أن يقهر يتيماً، أو يقطب في وجهه وهو الذي قال فيه عز وجل **{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}** (القلم:

(1) أخرجه أحمد حديث رقم (15454، 15455) .

4). إنما الخطاب هو للأمة على الصورة التذكيرية لليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم.. فتأديب اليتيم: ليس من قهره الذي نهى الله عنه في قوله عزّ وجلَّ: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** (الضحى: 9) فالمراد منها: لا تُذلَّه ولا تَضرُّه وتُضيِّق عليه وتنهره وتزجره زجرًا يتأثر به نفسيًا، ولا يدخل في ذلك تأديبه وتعليمه، سيما إذا احتاج إلى ضرب وتهديد وتخويف، كما يفعل حاضنه مع أولاده، فإن ذلك من مصلحتهم. يقول أَبُو مَسْعُودٍ البَدْرِيُّ رضي الله عنه: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاماً لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتاً مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ قَالَ فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: " **اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لا أَضْرِبُ مَمْلُوكاً بَعْدَهُ أَبَداً**"[1].

وفي رواية: " فَسَقَطَ مِنْ يَدِي السَّوْطُ مِنْ هَيْبَتِهِ ".

وزاد في رواية: " فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ: "**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ**".

فهنا ترى حرص الصحابة رضي الله عنهم على كمال الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم، ممّا دفع أبا مسعود رضي الله عنه إلى أنْ يُعتقَ الخادم ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ فعندما يذكر المؤمن قدرة الله تعالى عليه لا يمكن أن تمتدّ يده بالأذى إلى أيّ مخلوق من عباد الله، فكَفى برقابة الله تعالى وتذكر قدرته رادعاً عن الظلم والعدوان.

(1) رواه مسلم، حديث رقم (3135) .

ميدان الأخلاق والسلوك

ها نحن مع مربي الأمة ومعلمها في ميدان جديد هو "**ميدان الأخلاق والسلوك**"، ودائمًا ننطلق بسيرة اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم.. فتلك هي القاعدة أكدها صلى الله عليه وسلم أن يبدأ الإنسان ثورته من الداخل، فلم يكن صلى الله عليه وسلم صاحب لهو ولا عبث، كان كذلك غلامًا، ثم شابًا، ثم أصبح بعد ذلك عاكفا زاهدًا، منصرفًا عن الناس إلا ما يوجبه حق المجتمع عليه، من عطاء يقدمه لمحتاج، أو معاونة لمستعين، أو إغاثة لملهوف، أو صلة لرحم... وغير ذلك، فكان المتحمل للواجبات، المعتزل الذي يؤثر العزلة عن الاندماج في غمار الناس، حتى لا يصيبه شيء مما يخبثون به؛ لأنه الطاهر الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكانت حياته قبل البعثة مرشحة لحياته بعدها[1].

وقد علمنا أنه لم يكن يُتم النبي الهاشمي صِفة نَقص فيه، فقد كان غلامًا عَظيمًا، ذا نفس سامِقة تواقة، ولم يَكُن اليُتم حائِلاً بينه وبين تَطلعَاته وهِمتِه، فها هو ذا وهو طفل صغير، يشعر بألام قريش عندما ضربهم الجدبٌ والقحطٌ حتى هَزلت مواشيهم وسَغبت بطونهم، فخَرجوا يستَسقون!، فبينا هُم كذلك إذ أقبَل عبد المطلب ومعه حفيده محمد، ذاك الصبي اليتيم الهاشمي فالتَزم به الكعبة، وألصَق ظَهره بها، ثم أخَذ بأصبعه فأشار به إلى السماء وما فيها قَزعة، فأقَبل السَحاب من ها هُنا وهاهُنا وأغدق واغدودَق، وانفجَر له الوادي، وأخصَب النادي والبادي، وفي ذلك يقول عمه أبو طالب:

وأبيضُ يُستَسقَى الغَمَام بوَجهه... ثُمال اليتَامى عِصمةٌ للأرَامِلِ

يلوذُ به الهُلاَّك من آل هَاشِمٍ... فهم عندَه في نِعمةٍ وفضَائلِ

والثمال هو الغياث والملجأ وقيل المُطعم في الشدة. فلقد كان صلى الله عليه وسلم صدرًا حنونًا وأبًا حانيًا لليتامى قب البعثة وبعدها.

---

(1) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم،لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، 1425هـ/ 2004م، 1/ 265.

لقد هيأ الله البيئة المناسبة لتنشئة محمد بن عبد الله "اليتيم الهاشمي" ليصبح مؤهلاً لحمل الرسالة، فحفظه الله من نقائص الجاهلية. فقد كان اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم محفوفاً بعناية الله منذ طفولته حتى لا تصيبه ملوثات الجاهلية، فهو لا يمكن أن يتعرى كما يتعرى الغلمان أثناء اللعب؛ قال عليه الصلاة والسلام: "**لقد رأيتُني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإني لأُقبلُ معهم كذلك وأُدْبِر إذ لَكَمني لاكِمٌ ما أراه لكمةً وجيعة؛ ثم قال: شُدَّ عليك إزارك، قال: فأخذتُهُ وشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عَلَيَّ من بين أصحابي**"[1].

مشهد آخر يبين النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوجه من الرعاية الإلهية له قبل البعثة وهو يحدث عن نفسه فيقول: "**ما هَمَمْتُ بقبيحٍ ممَّا كان أهلُ الجاهليَّةِ يَهُمُّون به إلَّا مرَّتينِ مِنَ الدَّهرِ، كِلْتَيْهِما يَعصِمُني اللهُ تعالى مِنهُما. قُلْتُ ليلةً لفَتًى كان معي مِن قُرَيْشٍ بأعلى مكَّةَ في أغنامٍ لأهْلِهِ يَرْعاها: أَبصِرْ إلى غَنَمي حتَّى أَسْمُرَ هذهِ اللَّيلةَ بمكَّةَ كما يَسْمُرُ الفِتيانُ، قال: نَعَم. فخَرَجْتُ، [فجِئْتُ] أَدْنَى دارٍ مِن دورِ مكَّةَ، سمِعْتُ غِناءً وضَرْبَ دُفوفٍ ومَزاميرَ، فقُلْتُ: ما هذا؟! قالوا: فُلانٌ تَزَوَّجَ فُلانةَ، لرَجُلٍ مِن قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امرأةً مِن قُرَيْشٍ، فلَهَوْتُ بذلكَ الغِناءِ وبذلكَ الصَّوتِ حتَّى غَلَبَتْني عيْني، فما أَيقَظَني إلَّا مَسُّ الشَّمسِ، فرَجَعْتُ إلى صاحبي، قال: ما فَعَلْتَ؟ فأَخبَرْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ له ليلةً أخرى مِثْلَ ذلكَ، ففَعَل، فخَرَجْتُ فسمِعْتُ مِثْلَ ذلكَ، فقيل لي مِثْلَ ما قيل لي، فلَهَوْتُ بما سمِعْتُ حتَّى غَلَبَتْني عيْني، فما أَيقَظَني إلَّا مَسُّ الشَّمسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلى صاحبي فقال: ما فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: ما فَعَلْتُ شيئًا. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فواللهِ ما هَمَمْتُ بَعْدَها بسوءٍ ممَّا يَعْمَلُ أهلُ الجاهليَّةِ حتَّى أَكرَمَني اللهُ عزَّ وجلَّ بنُبُوَّتِهِ**"[2].

---

(1) ابن هشام: السيرة،197/1.

(2)المطالب العالية لابن راهويه بزوائد المسانيد الثمانية: لا بن حجر ، تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي ،260/4.

لقد عصم الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من جميع مظاهر الإنحراف، ومن كل يتفق مع مقتضيات التي هيأه الله لها.

وهذان الحديثان يوضحان لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

الأولى: أن اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات التي اقتضت حكمة الله أن تشغل الناس وينكبوا عليها، فكان يحس بمعنى السمر واللهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

والثانية: أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف، وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها[1].

لقد اصطفى الله تعالى نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وربَّاه على عينه، فتولَّاه بعنايته سبحانه، وأعَدَّه للرسالة العظمى، فاستقامة اليتيم الهاشمي في شبابه وحسن سيرته أدعى إلى نجاحه في دعوته إلى الله، وإصلاح الأخلاق، ومحاربة المنكرات، إذ لا يجد في الناس من يغمزه في سلوكه الشخصي قبل قيامه بالدعوة.

لقد عاش اليتيم الهاشمي بين أهل مكة معيشة تجلت فيها الكثير من الصفات الإنسانية العالية والمتميزة، والتي جعلتهم جميعا يشهدون له بالعقل ورجاحته، ويلقبونه بـ "**الصادق الأمين**"، ومن ثم لم ينقطع اليتيم الهاشمي عن قومه في أعمالهم الجماعية إذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به، فإذا كانوا على أمر جامع ذهب إليه وشارك فيه ما وسعته المشاركة، من غير أن يرضى بباطل، أو يجور على حق، إنما كان دائمًا مع الحق يستبشر به، وضد الباطل ينغض[2] رأسه به، من غير صخب[3] ولا شحناء، فما كانت الشحناء من شأنه، ولا المباغضة من خلقه، بل هو في كل

---

(1) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص50،51.

(2) ينغض: يعرض.

(3) الصخب: ارتفاع الصوت واختلاله.

أحواله الودود الحليم، والنفس الطيبة، وكان يحضر "دار الندوة" إذا انعقدت، ويستمع إلى كبراء العرب، فما يرضيه من قول الحق يستشرف[1] إليه ويستبشر به، وما لا يكون حقًّا يبدو نفوره منه ولا يرتضيه[2].

لم يكن النبي في صباه وشبابه المبكر بمعزل عن حياة قومه، وأحداث موطنه ورهطه، بل كان عضواً فعَّالاً مشاركاً، وأتيح له بحكم موقعه ونسبه أن يشهد أحداثاً هامة مع قبيلته وأعمامه، ومنها "**حلف الفضول**"، وكان بعد انتهاء حرب الفجار بحوالي شهر، وهو حلف تعاقدت فيه قريش وحلفاؤها على إعادة النظام والأمن، وتوفير الحماية للقادمين إلى مكة وأسواقها، وحفظ الحرمات وصيانة الحقوق، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان، وكان السبب المباشر لعقد هذا الحلف أن رجلاً يمنيّاً من زبيد باع تجارة للعاص بن وائل السهمي القرشي، فماطله في الثمن، فأعتلى الرجل جبل أبي قبيس حتى يسمعه الناس، وأخذ يشكو مظلمته، وسمعه زعماء قريش في مجلسهم حول الكعبة المشرفة فسارعو لنصرته.

واجتمعت بطون قريش في "**دار الندوة**" وعلى رأسهم الزبير بن عبد المطلب، وأتفقوا على التدخل في المشكلات لإنصاف المظلوم ونصرة الضعيف، ثم سارعوا إلى دار عبد الله بن جدعان فتحالفوا وتعاقدوا على ذلك.

وقد حضر اليتيم لهاشمي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف وقال فيه: "**شهدتُ حلفَ المُطَيَّبين وأنا غلامٌ معَ عمومتي، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وأني أَنكُثُه** "[3].. وقال صلى الله عليه وسلم: "**لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت**"[4].

---

(1) يستشرف: يتطلع إليه.

(2) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم،لمحمد أبو زهرة دار الفكر العربي، مصر، 1425هـ/ 2004م، 132/1 بتصرف يسير.

(3) أخرجه أحمد: السلسلة الصحيحة، رقم الحديث (1567) .

(4) السيرة النبوية لابن هشام، 135/1،134.

إنَّ بريق الفرح –بهذا الحلف– يَظهر في ثنايا الكلمات التى عبَّر بها محمد اليتيم الهاشمي عنه؛ فإن الحميَّة ضد أي ظالم مهما عزَّ، والوقوف مع أي مظلوم مهما هان، هي روح الإسلام الآمرِ بالمعروف، الناهي عن المنكَر، والواقف عند حدود الله، ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأفراد والأمم، وفي صِلات الأفراد على سواء.

كما شارك محمد اليتيم الهاشمي قومه في "**إعادة بناء الكعبة المشرفة**" وحضر المنازعة في وضع الحجر الأسود، ولذلك أن السيول القوية أصابت مكة المكرمة وصدعت بناء الكعبة، وهدمت أجزاء منها، وكان ذلك بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها بعشر سنوات، أي أنه كان في الخامسة والثلاثين من العمر، فأرادت قريش أن تشيد بنيانها وترفع بابها حتى لا يدخلوا إلا من شاءوا، وأعدوا لذلك نفقة وعمالاً، ولكنهم تخوفوا وترددوا مهابة للبيت الحرام، حتى تقدمهم الوليد بن المغيرة، فهدم شيئا منها ونصحهم ألا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها، وألا يدخلوا في بنائها مالاً حرماً.

ولكن هناك مشكلة كادت أن تقيم بينهم حربًا ضروسًا، وذلك بعد الانتهاء من البناء، ألا وهي، من بحظى بشرف حمل الحجر الأسود ووضعه في مكانه من الركن اليماني، فكل أراد أن ينال هذا الشرف، وظلت قريش على خلافها أربع ليال أو خمساً، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام للتشاور، فأشار عليهم بعض شيوخهم أن يحتكموا إلى أول من يدخل المسجد، فأكرمهم الله عز وجل، وكان أول داخل عليهم هو محمد بن عبد الله ، فاستبشروا خيراً وقالوا: "هذا الأمين محمد رضينا"، فلما عرضوا عليه خلافهم قال: "**هلمّوا إلي ثوباً**"، وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده الشريفة، ثم قال: " **لتأخذ كل قبيله بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعا**" ففعلوا حتى إذا بلغو به موضعه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان[1].

---

(1) الرسول صلى الله عليه وسلم،لسعيد حوى دار السلام، القاهرة، ط2، 1410هـ/ 1990م، ص 206، 207.

ومن حفظ الله للنبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم في شبيبته عن أقذار الجاهلية وأدرانها، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر أثناء بناء الكعبة ورفع إزاره على رقبته، فخر إلى الأرض وطمحت عينه إلى السماء ثم أفاق: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره، فما رؤي بعد ذلك عرياناً[1].

لقد كان محمد اليتيم الهاشمي محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين وتهفوا إليه قلوب الرجال والنساء على السواء بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، ومازال يزكو وينمو حتى تعلقت قلوب قومه وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف[2].

الأخلاق والسلوك:

وقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذى يدعو إليه ، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى ، بسيرته العاطرة ، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات..

إن مكارم الأخلاق وإن شاع بعضها في المجتمع العربي الجاهلي إلا أنها ارتبطت بمنافع دنيوية وغايات نفعية، ومطامع ومكاسب مادية، فأعاد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم نظامها وهيكلها على الوجه الذي يرتضيه الله، لذلك يقول صلى الله عليه وسلم: "**إِنّما بُعِثْتُ لِأُتمِّم صالِح الْأَخْلاقِ**"[3]. وفي رواية: "**إِنّما بُعِثْتُ لِأُتمِّم مكارِمِ الْأَخْلاقِ**".

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم (1583) .

(2) فقه السيرة النبوية، لمنير الغضبان، معهد البحوث العلمية واحياء التراث مكة المكرمة ، ص110،111.

(3) مجمع الزوائد للهيثمي، 18/9.

إن مقولة علماء الأخلاق "**إن القيم الأخلاقية تعني فن السيطرة على الأهواء**" تتحقق بجلاء في هذا المشهد الرائع الذي يرويه لنا أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بعض أسفاره، ومعه غلام أسود يقال له، أنجشه يحدو الإبل بالنساء –أي ينشد ويضرب بعصاه الأرض في تناغم موسيقي–، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**رُوَيْدَكَ يا أَنْجَشَةُ سَوْقَكَ بالقَوَارِيرِ**" [1].

قال بعض شراح الحديث، إن أنجشة كان حسن الصوت، وكان يحدو بهن، وينشد شيئاً من الشعر، وربما فيه بعض الغزل، فلم يأمن النبي صلى الله عليه وسلم أن تتأثر النساء بما يسمعن، لحسن صوت أنجشة، ولأثر الكلام الذي يقوله، فطلب منه الكف عن هذا رحمةً منه بالنساء[2].

إن هذا الموقف يسجله لنا التاريخ من سيرة النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم صارت نظرية أخلاقية، تجاوزت الزمان والمكان والبيئة، وحفظ التاريخ لها مكانتها. ودرس عملي للمربين، في كل زمان ومكان، أن يرفقوا الفرد المُعدم، ويتلطفوا معه، وإذا كانت النظريات التربوية الحديثة تحث على هذا المسلك في التعليم والتقويم، فإن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم أرشد إليها قبل مئات السنين.

وهذا مشهد آخر وباب آخر من أبواب تربية اليتيم على صالح الأخلاق والآداب وهو الصدق؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لأَلْعَبَ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللهِ ! تَعَالَ أُعْطِكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟** قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْراً، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ**"[3].

---

(1) أخرجه البخاري، حديث رقم (6210) .

(2) شرح النووي على صحيح مسلم، 1/ 6145.

(3) رواه أحمد، حديث رقم (15147) .

إن هذه الأم الحانية أرادت لولدها ألاّ يخرج لينال بركة مجالسة النبيّ صلى الله عليه وسلم واستماع حديثه، فأرادت إغراءه بالتمر كي يعود، ومن هنا علمها النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة التزام الصدق مع الأطفال، وأنها إن تفعل لكانت كاذبة، وتحاسب على ذلك أمام الله تعالى، فما أكثرَ ما يتساهل الوالدان والمربون بالكذب على الطفل وَأمَامه ! ثمّ يطالبونَ الطفل بأقوالهم أن يبتُعد عن الكذب. وهو أمر يكاد يكون متعذرًا، فالطفل يكون قد تشرب الكذب من والديه، واتسع الخرق على الراقع.

إن المنهج النبوي الشريف يقوم على الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، ومع جميع الناس، حتّى مع الأطفال، لأنّ شخصيّتهم في تشكّل ونموّ، وعندما يكذب عليهم المربّي، فإنّما يعلّمهم الكذب بسلوكه، كما أنّ الكذب لا يخفى عليهم أمره، ومن هنا ينبغي على المربّي أن يستفسر عمّا يقع أمامه ممّا تشكل عليه حقيقته، وينبّه على ما يرى من ملاحظات شرعيّة أو تَربويّة، وينصح.

كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم حرصًا شديدًا على أن يزرع مكارم الأخلاق في عقول وقلوب الأطفال ، فعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل. وانه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلق أسفل درجة فى جهنم" [1].

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل بشئون الإصلاح الخلقى فحسب لما كان مستغربًا منه ، إنما وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير. والأديان عادة ترتكز فى حقيقتها الأولى على التعبد المحض. والنبى دعا إلى عبادات شتى ، وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين ، فإذا كان مع سعة دينه ، وتشعب نواحى العمل أمام أتباعه يخبرهم بأن أرجح ما فى موازينهم يوم الحساب ، الخلق الحسن. فإن دلالة ذلك على منزلة الخلق فى الإسلام لا تخفى.. والحق أن الدين إن كان خلقا حسنا بين إنسان وإنسان ، فهو فى طبيعته السماوية صلة حسنة بين الإنسان

(1) أخرجه أحمد، حديث رقم (1723) .

وربه ، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة. إن هناك أديانًا تبشر بأن اعتناق عقيدة ما ، يمحو الذنوب ، وأن أداء طاعة معينة يمسح الخطايا. لكن الإسلام لا يقول هذا ، إلا أن تكون العقيدة المعتنقة محورًا لعمل الخير. وأداء الواجب ، وأن تكون الطاعة المقترحة غسلاً من السوء. وإعدادًا للكمال المنشود ، أى أنه لا يمحق السيئات إلا الحسنات التى يضطلع بها الإنسان ، ويرقى صعدا ، إلى مستوى أفضل.

تقوية العزيمة والطموح:

الناجحون في حياتهم يعتمدون بالأساس على صفتين محوريتين لنجاحهم، هما: العلم والإرادة، وعلى أساس هاتين الصفتين تتفاوت مقامات الناس ومنازلهم. فمنهم من هو قليل العلم، ضعيف الإرادة، وهؤلاء هم أقل الناس قدرًا. ومنهم من لديه علم، ولكنه ضعيف الإرادة والعزيمة، فهذا سيظل محبوسًا في سجن ذاته، غير مستغِلّ لقدراته وإمكاناته. ومن الناس من هو ضعيف العلم لكنه كثير المجهود، فهو يتخبط بجهده غير مستوضح هدفه ولا سبيله. وأما كمال مقامات الناس فهي إنما تتحقق بالعلم والعزيمة عندما يجتمعان. إن اتصاف المرء بالعزيمة والطموح في ضوء نور معرفته لهدفه وسبيله هو أقوى ما يمكن أن يتصف به فاعل ومؤثر؛ فالعزيمة تدفع وتقوي، والطموح يبشِّر ويجذب نحو الهدف المعلوم. كثير من المتساقطين في سبيل الحياة إنما يعود سبب سقوطهم إلى ضعف عزائمهم؛ لأن معوقات الحياة كثيرة، وهي أكثر لمن أراد التغيير، فإذا كان سير الإنسان ضعيفًا، وقّوته ضعيفة، وهمته ضعيفة؛ فهو يكون عندئذ نهباً مستباحاً لذئاب العالم وقاطعي الطريق. وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم، ومن ثَم انطلق في حياته من عزيمة لا تعرف الكَلل، وعمل على تقوية العزائم في نفوس أصحابه وأمته، وحاول جاهدًا أن يجعل لهم طموحًا متدرجًا نحو معالي الأمور، وكان كثيرًا ما يقول في صلاته يدعو: "**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة على الرشد**"[1]. ويسأل ربه أن يثبته على ما تحقق من

(1) أخرجه أحمد، حديث رقم (16683) .

إنجاز، وأن يعطيه العزيمة على إكمال السبيل، سائلاً ربه أن تكون عزيمة رشيدة نافعة حكيمة عليمة.

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بناء نفوس أمته، على أن تكون نفوسًا قوية أبية، تملؤها الإرادة، ولا يفتّ فيها الألم، ولا تتأثر بكثرة الضعفاء من حولها، ولا بكثرة الأعداء حولها، ومع هذا الموقف الذي يجلِّي ذلك فقد أسَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومًا إلى خادمه أنس بسِرٍّ، وكأنَّه أمره أن يحمله ويبلِّغه عنه إلى بعض نسائه، ثمَّ أوصاه فقال له:" لا تخبر بسرِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أحدًا"، فخرج أنس إلى الطريق، وهو يومئذٍ صَبي يَلهو كما يلهو الصِّبيان، ويستهويه ما يستهويهم، فوجد الصبيانَ يلعبون فقعد يلعب معهم، ثم إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج في بعض حاجته فوجد أنسًا يلعب، فجاء النبيُّ فسلَّم على الصبيان، ثمَّ أخذ بأُذن أنس يداعبها، وقال:" أيْ لُكع! ألم أبعثك في حاجة؟"، فقال أنس معتذِرًا: نسيتُ، فقال له صلى الله عليه وسلم: " الآن فاذهب".

وكأنَّ أنسًا عرَّج في طريقه على بيتهم لحاجة، فسألَتْه أمُّه أمُّ سليم: فيمَ كنتَ؟ فقال لها: كنتُ في حاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت – تختبره –: ما حاجتُه؟ فقال أنس: إنها سرٌّ! قالت أمُّ سليم: احفَظْ سِرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تُخبِرْ به أحدًا.

لقد كان أنس رضي الله عنه يحدِّث بهذا الحديث تلميذَه الوفي "ثابتًا البنانيَّ"، وأنس حينئذٍ ابن تسعين سنة – وقد مَرَّ على الحادثة قريب من ثمانين سنة – فقال له: واللهِ، لو حدَّثتُ به أحدًا، لحدَّثتُك يا ثابت، وإنِّي ما أخبرتُ به أحدًا بعد رسول الله، ولقد سألتني أمِّي أم سُليم، فما أخبرتُها به[1].

هذا موقفٌ واحد من ألاف المواقف كانت بين النبي وخادمه أنس، وجميعها ينضح عطرًا، ويرشح عنبرًا.

---

(1)أخرجه أبو داود ،حديث رقم(1555).

ويسترعي الانتباهَ في هذا الموقف: حُسنُ تربية النَّبي صلى الله عليه وسلم في مسلكها وأثرها، وعظم دور أم أنس رضي الله عنها في دَعْم هذه التربية وتثبيتها وتشجيعها.

"**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من العجزِ والكسلِ**"[1] إنه دعاء كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يدعو به، يقول خادمه أنس رضي الله عنه: إنه كان كثيرًا ما يدعو بهن. والمتأمل في هذا الدعاء بالخصوص يجده يعدُّ عجز المرء وهو: عدم قدرته على الأداء، وكسلَ المرء، وهو: تباطؤه وتوانيه في الأداء، وهمَّه وحزنَه، اللذين يُقْعِدانه عن الإنجازات والأعمال، وجبنَه وبخلَه وهرمَه التي يَمنعه من اللحاق بأصحاب المراتب العالية؛ تجده يعدُّ كل ذلك شيئًا ينبغي على المؤمن أن يتعوذ منه، وأن يتنصَّل منه، وأن يتبرأ منه، وأن يدعو ربه دومًا أن يباعد بينه وبينه، إذ المؤمن دومًا فعّال طموح مُؤَثِّر مُنجز.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دومًا يربط الطموح بالعزائم، ويعلم أمته أن يتسموا بالطموح ويتصفوا به،

إنها إمامة لا يقتصر طموحها على حدود الدنيا وحسب، بل إنها تتعداه إلى الخلود في جنات الآخرة. إن هذا الطموح لم يكن طموحًا في الظهور ومراءاة للناس، ولكنه كان طموحًا في التأثير والتعمير والإصلاح،والمسابقة في التقرب إلى الله، فقد بيَّن أن أكمل حالات المؤمن أن يكون همه الاستعداد للآخرة، ويتضح لنا هذا المعنى في الحديث الذي يرويه زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ**"[2]. وهو بهذا لا ينهاهم عن الكسب الدنيوي وتحصيل المتاع

(1) أخرجه الطبراني: المعجم الصغير، حديث رقم (316) .

(2) أخرجه الترمذي، حديث رقم (2465) .

المباح؛ بل هو يأمر بذلك ويؤكد عليه ويوجبه، لكنه ينهى الناس أن تكون الدنيا هي كل شيء في حياتهم.

إن أثر هذه التربية والتوجيه على أصحابه وأتباعه لا يقف عند مجرد التطبيقات المباشرة التي اتصل بها النص، بل يمتد ليوجد نفوسًا ذات عزيمة وطموح، وذات همة عالية في حياتها كلها؛ في حياة الفرد في نفسه، ومع أسرته، ومع مجتمعه.

التربية على العفة:

العفة خلق كريم يمكن اكتسابه حتى لو لم يكن عند الإنسان منه كبيرُ شأنٍ، فإنَّه يستطيع اكتسابه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :" ومن يستعفف يعفَّه الله"[1] .. ولما نزلت آية الحجاب أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنسًا أن يستأذن عليه عند الدخول، وفي هذا الصدد يقول سيدنا أنس رضي الله عنه: كُنْتُ أَخْدُمُ رسُول اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، فكُنْتُ أدْخُلُ عليْهِ بِغيْرِ إِذْنٍ، فجِئْتُ ذات يوْمٍ فدخلْتُ عليْهِ فقال: "**يا بُنيّ، إنّهُ قدْ حدث أمْرٌ، فلا تدْخُلْ عليّ إلّا بِإِذْنٍ**"[2].

فانظر إلى هذا التعليم الحصيف من النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه اليتيم، لقد كان معتادًا الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذن؛ لأنه خادمه، وبالتالي يعد نفسه من أهل البيت، فلما نزلت آية الحجاب وهو صبي مميز قد تجاوز العاشرة من العمر أو يزيد، أي أنه قد قارب البلوغ، فما ينبغي له أن يدخل على النساء إلى بإذن، وتخفيفًا من النبي صلى الله عليه وسلم عليه، قال له: "**يا بني، إنه قد حدث أمر**" وذلك كله مراعاة لجانبه، حتى لا يظن أن النبي هو الذي كرهه، أو اطلع منه على سلوك قبيح فمنعه من الدخول، أو شك في سلوكه مثلا، فكل هذه وساوس تنتاب الصبي في مثل هذه السن، فجاء قول النبي الكريم مبينًا أن هذا الأمر من الله تعالى

---

(1) أخرجه البخاري: حديث رقم (1361) .

(2) أخرجه أحمد (13176) .

ذاته، وأنه تشريع جديد للأمة جميعًا، فينبغي للجميع الإذعان له، والانضواء تحته، ففي هذا التعليل رفق بهذا الخادم اليتيم، ومراعاة لحالته النفسية، وطرد للوساوس عنه.

وكذلك أيضًا حرص النبي الكريم أن يربي أطفال المسلمين على مجموعة من الآداب الإسلامية الرفيعة في الطعام والشراب، فهو يعلم آداب الطعام لربيبه عمر بن أبي سلمة الأسدي، فيقول عمر: "قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**يَا بُنَيَّ، إِذَا أَكَلْتَ فَسَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**" قَالَ: فَمَا زَالَتْ إِكْلَتِي بَعْدُ"[1].

وهنا نرى رفق النبيّ رضي الله عنه بربيبه، فلم يزجره، ولم يعنّفه، وإنّما علّمه آداب الطعام بكلمات موجزة، جامعة بيّنة؛ إذ ينبغي على المرَبّي أن ينتبه إلى سلوك الطفل، فيوجّهه من خلال أخطائه، ولا يتغاضى عنها بدون حكمة ظاهرة.

كما أن ذلك له دلالات تربوية مهمة، لعل من أهمها ضرورة تأديب الأطْفال بآداب الطَعَام والشراب، وبخاصَّة ذكر اللهِ تعالى قَبل البَدء، وحمده بعد الانتهاء؛ لأن ما يلقى إلى الطفل في سنّ الطفولة يرسخ في نفسه ويثبت، ويصبح عادة له لا يتخلّى عنها.

---

(1) أخرجه أحمد، حديث رقم (16331) .

إن من روعة سيرة اليتيم صلى الله عليه وسلم أنك باطلاعك على كلامه تجد أنك لا تتطلّع على " كلمات " تقرأ، أو " آيات، وأحاديث " تتلى، بل تجدك تتطلع على "حياة " تموج بكل حركتها، ومن أمواج هذه الحركة الحياتية دعوته صلى الله عليه وسلم إلى العمل واحتراف المهن بمختلف أنواعها سواء من خلال الحديث عنها مباشرة، أو بضرب الأمثلة المستمدة من تلك الحرف تارة أخرى أو بالحديث عن مكونات تلك الحرف والمهن، كل ذلك في نسق نبوي بديع يؤكد للمسلمين وللبشرية كلامه لمن رام أن يستجيب لله ورسوله!

لقد عرف اليتيم الهاشمي – كنبي مرسل – أن خيرية المسلم وعزته إنما هي مرهونة بعزمه وهمته، ومقدار سعيه لإعمار الأرض بالاجتهاد والعمل، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الحياة سهلة للمؤمنين لمجرد أنهم مؤمنون إنما أجرى عليهم سنن الكون التي تنص على أن الأرض يرثها من سعى لذلك وبذل الوسع من أجل اعمارها، بل وجعل قيمة كل إنسان في هذه الأمة تتحدد بما يتقنه من عمل.

لقد كان اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الكسل فعن أنس ابن مالك قال: كان صلى الله عليه وسلم يقول: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**"[1].

وهذا الذي عمل به النبي الكريم وجعله يدرك أهمية إدخال الاهتمام بتأصيل أسس الاسترزاق ومتطلباته ضمن برنامجه التربوي لليتامى والهادف إلى أن يخرج منهم النشء الصالح والمنتج، وأن يكون ذلك من أوائل ما يرشد إليه اليتامى، فلا يُتركوا لانتكاسات الدهر وعوائق الحياة وتعقيدات الدنيا تصدهم بسلطانها القاهر وتفجؤهم بطغيانها اللاهب، بل ينبغي أن يتعلموا فقه الحياة ومتطباته وأسس الاسترزاق

(1) أخرجه أبو داود، حديث رقم (1555) .

والاستغناء، كما يتعلمون لغتهم ودينهم وسائر علومهم، وفي ذلك شيء من الضمانة لا ستقرار مستقبلهم، وحسن تعاملهم مع مُخباته وغيرباته، وفيه إنسجام مع واقعية أثبت العقل والدهر ضرورتها، مؤكدين بذلك بالنموذج الأمثل في شخصه صلى الله عليه وسلم.

فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يرى أطفال الصحابة رضي الله عنهم يخدمون الحجاج بالسقيا، فأثنى على هذا الموقف الرائع، وأشاد هؤلاء الأطفال، وشجعهم فقال: "**أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، كَذَا فَاصْنَعُوا**"[1]؛ ليغرس في نفوسهم حب العمل، ونفع الآخرين، فيتأكد لديهم أهمية التعاون في الحياة.

وورد في بعض الآثار مشهد من أعظم المشاهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على رجل قد ورمت يداه من العمل فقال: "**هذه يد يحبها الله ورسوله**".

وها هو النبي صلى الله عليه وسلم يؤدب طفلاً ويشد عليه برفق لأن جنايته لا تقاس بجناية الكبير.. فالطفل اليتيم أحوج إلى العطف والرفق، والتوجيهِ والدعاء. فعَنْ عَمِّ أَبِي رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو الغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ غُلاماً أَرْمِي نَخْلَ الأَنْصَارِ فَأُتِيَ بِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: "**يَا غُلامُ لِمَ تَرْمِي النَّخْلَ؟ قَالَ: آكُلُ، قَالَ: فَلا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي أَسْفَلِهَا، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ: فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ**"[2].

هنا ترى رفق النبي صلى الله عليه وسلم بالغلام وسُؤَاله عن سبب فعله، قبلَ أَن يعاتبَه أو يوجّه إليه أيّة ملاحظة، وتصديقُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم للطفل، وتوجيهه إيّاه إلى ما يحلُّ له فعْلُه، وعلاجه صلى الله عليه وسلم لهذا الطفل بمسحه على رأسه والدعاء له، فجمع له بين التعليم والتوجيه، والتربيةِ الروحيّة له بالدعاء.

---

(1) أخرجه مسلم، حديث رقم(1316) .

(2) أخرجه أبو داود ، حديث رقم (2253) .

لقد سعى النبي صلى الله عليه وسلم لأن يحتل العمل قيمة اجتماعية كبيرة ويكون من أساسيات معايير التفاضل بين الناس. وعلى هذا النحو ذم النبي الكريم القادرين على العمل الذين يركنون إلى الكسل والتبطل ثم يستجدون الآخرين، فحرم التصدق عليهم. فيقول صلى الله عليه وسلم: "**والذي نَفْسِي بيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ علَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ له مِن أنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أعْطَاهُ أوْ مَنَعَهُ**"[1].

ووصل حد كراهته النبي الكريم للتسول أن بعض الصحابة، ومنهم أبو بكر وحكيم بن حزام وعوف بن مالك بايعوه صلى الله عليه وسلم على ألا يتسولوا أحدا شيئاً، إذ ليس في التسول إنتاج ولا خدمة تؤدى، وإنما هو تواكل واعتماد على جهد الآخرين، ولأن العمل هو الوسيلة الأساسية لتفادي التسول الذي هو مكروه شرعاً فإن من يعمل ويتفادى هذا الوضع المذل يعد كما ذكرنا متعبدا لله.. وهذا النموذج الجزئي الفردي فيه دلالة قوية كذلك على أن كل فرد وأمة تجد من أجل النهوض بمستواها الاقتصادي وتزيد إنتاجها لتستكفي به عن غيرها من الأمم هي بمنظار الإسلام أمة متعبدة لله تعالى.

لقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام على روح العمل ويحثه على الكسب والجد، فحدد النبي الكريم مراتب الأيدي فجعل منها: عليا وسفلى، وجعل أفضل الأمم أمة اعتمدت على نفسها، وخير الطعام طعام أكله الإنسان من عمل يده: "**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى**"[2].

يقول صلى الله عليه وسلم: "**لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ** "[3]، فإن من أشد أنواع البلاء، مصيبة الأفتقار إلى الناس، وذلة الحاجة إليهم، ويقول صلى الله عليه وسلم: " **شَرَفُ الْمُؤْمِنِ**

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم(1470) .

(2) ابن عبدالبر: التمهيد، 250/15.

(3) أخرجه الترمذي، حديث رقم (2254) .

صَلاتُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ "[1] فأن من أعظم النعم وأعلاها أن يكرم المرء بعزة الاستغناء، ويوهب منه الكفاية، وأفضل من ذلك أن يكون من أهل الغنى الشاكرين، ذوي الأيدي العليا الذين ينفقون المال يمنه ويسره لتفريج كربات المكروبين، وإدخال السرور على القلوب المكلومة بنار الفقر والعوز، ورفع العوز، ورع كابوس الصغار الذي يثقل كواهل المستضعفين، ويساهم في إبقاء ماء وجههم الذي كاد حالهم مع غطرسة المتكبرين وشح الموسرين أن يذهب بالبقية الباقية..

في هذا المجال –كما في المجالات الأخرى– يبدأ اليتيم الهاشمي من الداخل من داخل نفسه أولاً، حيث يقوم على حاجة نفسه، من الأعمال التي يقوم بها صبي من بني البشر في منزله وهو صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرب الأمثال في هذه الناحية، ففي عمر الثمانية أعوام كان اليتيم الهاشمي على قدر المسؤولية، حيث كان يقوم بتنفيذ المهام التي يكلفه بها جده عبدالمطلب وعلى سبيل المثال عن الإبل الضالة[2].

ورد في كتب السيرة النبوية المطهرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينظف بيته ويخصف نعله ويخيط ثيابه، وما رؤي فارغًا في بيته، بل كان دائمًا في حاجة أهله.، قد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: " **مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ** " [3].

وهذه رسالة رحمة يبعثها النبي صلى الله عليه وسلم إلى كل زوج ، وأب ، بل إلى كل رجل، وإلى البشر جميعاً، أضيف إليها رسالة رحمة أخرى، وتعاون تحملها معلومة

---

(1) أخرجه ابن عساكر: تاريخ دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ /1995م، 81/23.

(2) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي ، ص56.

(3) رواه أحمد، حديث رقم (26194) .

أكيدة، أهديها إلى الرجال في هذه القاعة بخاصة، تقول: "**كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بيته في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة**"[1].

كان النبي الكريم يرحم نساءه، ويساعدهن في أعمال البيت، لشعوره بحاجة الزوجة إلى هذا العون، وهذا العمل لا يتنافى مع العظمة، ولا مع الرجولة، كما يتوهم بعض الأزواج.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم نموذجًا بشريًا فريدًا في كل شيء، ففي المجال الاقتصادي ، وفيما يتعلق بكسب المال وإنفاقه. نجده رعى الغنم، ثم تاجر على النحو التالي:

اليتيم الهاشمي راعيًا:

ليس من شأن الرجال أن يقعدوا، ومن خلال هذه الفطرة السليمة التي تستنكف الكسل، والاعتماد على الآخرين، وكانت حياته النموذج الأمثل لليتيم ذي النفس الأبية الشريفة، الذي يعلم أنه مهما يبلغ الفقر به، ومهما يثقل عليه البؤس، ومهما يسيء إليه الضيق، فإن في فطرته كرامة تحمله على أن يجد حين يأكل من كسب يديه لذة لا يجدها حين يأكل مما يساق إليه دون أن يكسبه أو يحتال فيه، وترجم اليتيم صلى الله عليه وسلم ذلك عملياً، فمنذ نعومة أظفاره شارك إخوانه من الرضاعة في بادية بني سعد في رعي الغنم في مرحلة مبكرة من عمره، قد قارب الخامسة من العمر في مضارب البادية فإن أمثاله يقومون بشيء من ذلك، بحدود ضيقة وبقرب من المنزل، وقد دلت الروايات على اختلاطه بالصغار من أمثاله في مضارب البادية[2]، فقد كانت حياة اليتيم صلى الله عليه وسلم كدحًا متواصلاً.

---

(1) رواه البخاري، حديث رقم (6039) .

(2) رسول الله وخاتم النبيين دين ودولة:لعبد العزيز بن إبراهيم العمري، القسم الأول: علم السيرة النبوية العالم، ص244-245.

كما قام اليتيم الهاشمي محمد بن عبدالله برعي الغنم مساعدة لعمه أبي طالب الذي كان مُقلاً في الرزق، فلقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة، وهو غلام، وأخذ حقه عن رعيه، يقول صلى الله عليه وسلم: "**مَا بَعَثَ اللَّه نَبِيًّا إلا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَال أَصْحابُه: وَأَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ** [1] **لأَهْلِ مَكَّةَ**"[2].

هذا اليتيم الذي تعلم أنه مهما بلغت به الحاجة إلى المال، وضاقت به الدنيا، فلا بد أن يأكل من كسب يده، لا كسب أحد سواه مهما بلغت درجة قرابته، ولم لا وهو الذي علم الدنيا أن يعتمد كل واحد على نفسه في الكسب، ولا يرزأ أحدًا شيئًا؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[3] (رواه البخاري).

إن الفطرة السليمة التي كان يتحلى بها هذا النبي صلى الله عليه وسلم هدته مبكرًا إلى تلك القاعدة، ففي العمل والكسب حفظ للكرامة الآدمية عن ذل السؤال، تلك الكرامة التي تجعل صاحبها يتحمل الجوع والفقر، ولكنه لا يتحمل أن يكون عالة على أحد، ولو كان عمه أقرب الناس إليه، وأحناهم عليه، ويجد لذة حين يأكل من كسب يده لا تعدلها لذة أخرة، بل يقف الطعام في حلقه حين يأكل مما يساق إليه دون أن يكسبه بعرقه، وكأنه صلى الله عليه وسلم أدرك بفطرته السليمة أنه لا ينبغي له أن يكون لأحد عليه فضل في طعام أو شراب.

وقد ظلت هذه الأخلاق الكريمة ملازمة له طوال حياته، ونقلها إلى أصحابه الكرام، فعلمهم الاستغناء عن الناس، والاحتراف في سبيل الرزق، فقال صلى الله عليه وسلم[4]: «**لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ**

---

(1) القيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

(2) أخرجه البخاري، حديث رقم (2262) .

(3) أخرجه البخاري، حديث رقم (2072) .

(4) أخرجه البخاري، حديث رقم (2374) .

أَوْ يَمْنَعَهُ»، وهو الذي علم أصحابه[1]: «**شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»**.

مما لا يخفى على أحد أن ما تتطلبه هذه الوظيفة من مشقة كبيرة وتعب، ولكن نستطيع من خلال هذا المظهر أن نلتمس منها المنهج والاسلوب والسلوك الاقتصادي الذي انتهجه اليتيم الاشمي صلى الله عليه وسلم وهو الاعتماد على النفس وأن يأكل من عمل يده، وكان يسعى لكي يحقق لنفسه دخلاً يغنيه عن أن يمد يده لأعمامه أو غيرهم. بل إنه كان يشعر بضيق الحال لدى عمه أبي طالب، كثير العيال، كثير الأعباء في قومه الخاصة بالسيادة، فربما كان عمله صلى الله عليه وسلم لمساعدة عمه الذي آواه وكفله بعد وفاة جده.

وربما كان ما يجنيه اليتيم الهاشمي قليلًا، ولكنه تعبير عن شهامة في طبعه وبرٍّ في معاملته، وأن خير مال الإنسان ما اكتسبه بيده، لا ما جناه وهو مستلقٍ على ظهره، دون أن يبذل أي فائدة لمجتمعه، وأن صاحب أي دعوة لن تقوم لدعوته أي قيمة إذا كان كسبه من عطايا الناس وإنفاقهم عليه، وهو أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي حتى لا يكون لأحد من الناس فضل عليه.

إن اعتماد اليتيم الهاشمي على ذاته في الكسب رسالة واضحة بأن الكلمة حتى تخرج من الفم حرة أبية يجب ألا يتحكم في إطعام هذا الفم غير صاحبه، وأن من يكون عالة على غيره لا يمكن أن يكون قراره ناتجاً عن إرادة حقيقية، فالمسلم مطالب بالاعتماد في معيشته على جهده وكدّه، حتى لا يكون لأحد من الناس منة أو فضل يحول بينه وبين الصدع بالحق.

كما أن الكسب الحلال يكسبه الحرية التامة والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها، وكم من ناس يطأطئون رؤسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم، وكأن هؤلاء الطواغيت يملكون مفاتيح الرزق.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، برقم (7921).

اليتيم الهاشمي تاجرًا:

مارس اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم نشاطًا مهنيًا أخر لمدة أطول في حياته، إن لم يكن طيلة حياته، وهو التجارة، لم تعره كتب السيرة اهتمامًا بالغًا، بل تمر عليه بسرعة، وبصورة مقتضبة وعرضية في سياق زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها.

من المعروف أن اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم نشأ في مكة، وهي إلى جانب كونها مدينة الكعبة والعبادة، فقد كانت أيضًا عاصمة اقتصادية وتجارية كبرى في جزيرة العرب. والمعروف أن أهل مكة كانوا أهل تجارة، حيث كان موسم الحج موسمًا تجاريًا وسوقًا إقليميًا من الدرجة الأولى يجتمع فيه العرب مرة في السنة، مع تنظيمهم سنويًا لرحلات تجارية إلى اليمن والشام، في عمليات راتبة من التصدير والاستيراد[1].

في هذا الجو التجاري والاقتصادي العام، الذي كان فيه الشرف يرتبط بالقوة التجارية للأشخاص وجاههم، كان لا بد أن يترعرع اليتيم الهاشمي وهو متشبع بالثقافة التجارية لمحيطه الاجتماعي والاقتصادي. فكان أن أبدى منذ صغره اهتمامًا بالعمل التجاري، وخاصة برحلات قريش التجارية، حيث من الوقائع الثابتة أن اليتيم صلى الله عليه وسلم خرج مع عمه أبي طالب حين أزمع السفر إلى الشام للتجارة وهو في الثانية عشرة من عمره، حيث شب النبي الكريم منذ صغره على كل ما يعتمل في هذه الرحلات من مفاوضات وبيع وشراء ومناقصة وتحديد الأثمنة والأرباح[2].

ومن الوقائع الثابتة أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شريكًا تجاريًا للسائب بن أبي السائب قبل البعثة، وهو من المؤلفة قلوبهم، حيث شهد السائب في النبي بعد

---

(1) إبراهيم العلي: صحيح السيرة، ص58-59.

(2) الصلابي، السيرة النبوية، 1/25-27، وما ذكره من مصادر.

إسلامه وهو يفتخر بشركته معه قائلا "**بأبي وأمي كنت شريكي، فنعم الشريك لا تداري ولا تماري**"[1].

إلا أن الحدث الأكبر في هذه المسيرة التجارية للنبي صلى الله عليه وسلم هو بكل تأكيد عمله لأمنا خديجة رضي الله عنها كمضارب في أعمالها التجارية. حيث في ربيع أحد السنوات قبل البعثة، تجمعت قوافل المكيين المتجهة إلى الشام. وكانت السيدة خديجة، أعدّت قافلتها أيضًا ولكن لم تكن قد وجدت بعد الرجل المناسب الذي سيقود قافلتها ويسير أعمالها التجارية إلى الشام. وهنا يأتي دور النبي الكريم، حيث بناء على تجربته التجارية اقترحه أبو طالب للسفر في أموال خديجة بالبيع والشراء مقابل قسط من الأرباح، حيث عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار. وفي رواية أعطيك "ضعف ما أعطي رجالاً من قومك"، فقال أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك[2].

ماذا يدفع امرأة خبيرة في الأعمال والتجارة إلى هذا الإلحاح في الحصول على خدمات النبي الأكرم؟ سؤال يجعلنا نقف وقفة كبيرة أمام شروط التعاقد المغرية التي جمعته صلى الله عليه وسلم وأمنا خديجة رضي الله عنها. الشروط التي جمعت بين رجل شاب لا تعرف منه السيدة خديجة رضي الله عنها إلا سمعته وأمانته، وامرأة خبيرة في التجارة، خبرت السوق والتجار وتعاملت معهم وعرفت كفأهم وضعيفهم، حيث لم تجد بينهم الكفء الصادق الذي تكلفه بمهمة التدبير التجاري لاستثمارها المالي الكبير في عملية مزدوجة: التصدير من جهة والاستيراد من جهة أخرى، مع واجب حفظ رأس المال وتحقيق الفائض والأرباح[3].

إن امرأة بهذه الخبرة لا يمكن أن تنتدب لهذه المهمة الحساسة إلا شخصًا ذا كفاءة تجارية عالية وسمعة أخلاقية سامية، ولعل الشروط المغرية التي قدمتها أمنا خديجة

---

(1) الإصابة في تمييز الصحابة، 393/2.

(2) السيرة النبوية لابن إسحق، ص 134/1.

(3) السيرة النبوية لأبو فارس، ص 122.

للنبي صلى الله عليه وسلم لتحفيزه على قيادة قافلتها التجارية، إذ عرضت عليه كما قالت "**ضعف ما أعطي رجالا من قومك**"[1] لخير دليل على أن النبي الأكرم كانت تتقدمه سمعة كبيرة بخصوص حنكته وبراعته في إدارة أعمال التجارة والمال!

وقد أثبتت الوقائع صحة هذا التحليل بالنسبة لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، حيث نجح في مهمته التجارية أيما نجاح، إذ باع سلعته التي خرج بها إلى الشام، ثم اشترى ما أراد أن يشتري، وأقبل بعد ذلك قافلاً إلى مكة.

فكانت النتيجة حين دخل على السيدة خديجة بعد عودته من رحلته التجارية "**أخبرها بما ربحوا فسرت بذلك**" كما جاء في السيرة، حيث باعت ما جاء به من تجارة فربحت ضعف ما كانت تربح أو قريبًا![2] لقد حقق النبي الكريم نتيجة استثنائية وصلت حد مضاعفة الأرباح!

وبعدما أصبح النبي الكريم زوجًا للسيدة خديجة خديجة رضي الله عنها بخمسة عشر عامًا جاءه الوحي من السماء، أي أنه ظل لمدة خمسة عشر عامًا مديرًا لثروة عائلية مهمة، يدبر أمر تجارتها، ويشرف على أعمالها الاستثمارية في البيع والشراء في مختلف الأسواق، حيث ظل صلى الله عليه وسلم يتاجر في أسواق مكة القريبة، كسوق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز[3]، وحباشة[4].

وكذا صح أنه سافر إلى جرش قبل اليمن مرتين يتاجر في أموال السيدة خديجة رضي الله عنها[5].

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، حديث (286) .

(2) السيرة النبوية،للصلابي 62/1.

(3) رسالة الأنبياء، لعمر أحمد عمر،27/3.

(4)حُباشة على وزن فُعالة، سوق للعرب معروفة بناحية مكة وهي أكبر أسواق تهامة كانت تقوم ثمانية أيام في السنة.

(5) الموسوعة في صحيح السيرة النبوية لمحمد إلياس الفالوذة: ص 121.

هذه الخبرات المهنية الهائلة للنبي صلى الله عليه وسلم كان آثرها باديًا في إدارته وتدبيره بنجاح للأنشطة التجارية والاقتصادية للمجتمع الإسلامي الأول. ذلك أنه بعد الهجرة وتأسيس دولة الإسلام بالمدينة، تكاثر سواد المسلمين وتنامت أنشطتهم الاجتماعية والاقتصادية، لم يكن هناك بد من تنظيم إطار إسلامي جديد للاقتصاد والتجارة ينهي سيطرة اليهود على الحركة التجارية والاقتصادية على مجتمع يثرب، فكان أن أسس نبي الإسلام لأول سوق في التاريخ الإسلامي بعدما أسس المسجد، حيث كان السوق ثاني مؤسسة اجتماعية يؤسسها صلى الله عليه وسلم بعد المسجد، وكان أيضًا هذا السوق هو أول سوق يؤسسه نبي[1]!

ونظرًا لاشتهار اليتيم الهاشمي صلى صلى الله عليه وسلم بالأمانة والصدق، فقد كان بيته أشبه ما يكون بمصرف لحفظ الودائع والأمانات وردها عند الطلب، فقد لجأ أرباب الأموال إلى ترك ودائعهم في دار محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى في الأوقات العصيبة التي أراد المشركون فيها قتل النبي صلى الله عليه وسلم.. فقد كان يحفظ لهم ودائعهم.. والدليل إبقاؤه عليًا رضي الله عنه لرد تلك الودائع إلى أصحابها.

إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وقد تدرب اليتيم الهاشمي صلى الله عليه وسلم على فنونها، وقد بين صلى الله عليه وسلم: أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين، وهذه المهنة مهمة للمسلمين ولايقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم، وإذلالهم فهو ليس بحاجتهم بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته.

لم يستغل نبي الإسلام حب صحابته له، وشدة رغبتهم في متابعته، فكان يقوم بالعمل الشاق، على مسمع منهم، ومرأى من أجل أن يعملوا به، لم يكن هذا من منهج

(1) س. أ. ق. حسيني: الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأداب ومطبعتها،ص 49.

النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه كان من منهج بعض من سبقه، من القديسين، فمنهم من كان يصوم أياماً، ولا ينام ليالي عدة، وهذا يتعب أتباعه، إن كان له ثمة أتباع.

تعلم صنعة:

من كمال المربّي أن يجمع بين التعليم النظريّ، والتعليم العمليّ، وألاّ يكتفي بواحد عن الآخر، وربّما ظنّ بعض المعلّمين أنّ الممارسة العمليّة لا تليق بمقامهم، فليكن لهم بالنبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِغُلامٍ يَسْلُخُ شَاةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " تَنَحَّ حَتَّى أُرِيَكَ، فَأَدْخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ بَيْنَ الجِلْدِ وَاللَّحْمِ، فَدَحَسَ بِهَا[1] حَتَّى تَوَارَتْ إِلَى الإِبِطِ، وَقَالَ: **يَا غُلامُ هَكَذَا فَاسْلُخْ، ثُمَّ مَضَى وَصَلَّى لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ** "[2].

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الطفل يسلخ شاة، وما يحسِنُ، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن شمَّر عن ساعديه، وبدأ بسلخ الشاة أمام الطفل، وراح الطفل يتأمل الكيفية، ويعمل عقله في ذلك ، ويركز ذهنه في التعليم من النبي صلى الله عليه وسلم ..

وهذا ملمح مهم في التواضع وحسن التربية، يبدو منه حرص النبي صلى الله عليه وسلم، في كلّ مناسبة على تعليم أمّته ما ينْفعُها بصورَة عمليّة، وتشجيع للغلام في عمله، وتعليمه المهارة فيه، فالله عز وجل يحب العمل المتقن، كما قال صلى الله عليه وسلم[3]: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ**»

إن اهتمام معلم البشرية بتكوين الطفل اجتماعياً واقتصادياً يتجلى في توجيهه لكل ميادين الحياة وتفاعل الطفل مع الواقع الجديد والمجتمع الجديد الذي ينشأ فيه، وعملية

---

(1) دحس يدحَس بيده في الذبيحةِ: أدخلها بين جلدها ولحمها ليسلخها.

(2) رواه ابن ماجه (3170) .

(3) مسند أبي يعلى برقم (4386) .

البيع والشراء تكسبه حركة اجتماعية قوية، إذ يتعامل مع أطفال مثله ويتعود كيفية النشوء في هذه الحياة ويستفيد من وقته في شيء مفيد، كما أنها تكسبه الثقة النفسية الاجتماعية ويتحول إلى إنسان سوي يتعلم الجد في الحياة شيئاً فشيئاً، ويتعود الأخذ والعطاء، ويفهم الحياة فهماً جيداً صحيحاً بعيداً عن الدلال المفرط الذي يقتل الأطفال.

بل إن نبي الإسلام يدعو يشجع الأطفال على العمل والإنتاج، واكتساب الرزق، ويدعو بأن يبارك الله لهم في بيعهم وشرائهم، فقد مرّ صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان أو الصبيان قال: "**اللهم بارك له في بيعه**" أو قال: "**في صفقته**"[1].

وهنا ملمح تربوي جميل، حيث حث النبي صلى الله عليه وسلم النشء على ممارسة المهن لقصد كسب القوت والرزق، ومزاولة بعض الأهمال التي لا تتعارض مه طفولتهم البريئة. وهذا يشير إلى دلائل هامة في شخصيته المباركة هو تحفيز كل الطاقات الممكنة في المجتمع، وتسخيرها، وتعويدها على تحريك عجلة الإنتاج والعمل، مما يعود على المجتمع كله بالرفاهية والحياة الكريمة.

حافظ على ماله:

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مجتمعه قبيل الإصلاح فوجد مجتمعًا ماديًا لئيماً قويهم يأكل ضعيفهم، فأموال الأيتام – وبخاصة اليتيمات – في حجور الأهل والأولياء والأوصياء إما أن تؤكل ويحرم منها الأيتام لأنهم لا يملكون القوة التي يدفعون بها عن ميراثهم؛ أو أنهم غير محاربين، فلا حق لهم في الميراث، تحت تأثير الشعور القبلي، الذي يجعل للمحاربين في القبيلة كل شيء. ولا شيء للضعاف!, وإما أن يستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالإسراف والطمع, خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها ! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال, ليتخذهن الأولياء زوجات، طمعًا في مالهم لا رغبة فيهن ! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته !..

---

(1) مجمع الزاوئد ومنبع الفوائد،حديث رقم (15540) .

لقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعًا يزرع فيه الفقراء والأيتام والمساكين، والأغنياء الأقوياء يحصدون ويأكلون، والظلم واقف هناك والناس يدعونه القانون.. مجتمعًا يخلق أسباب اليُتم والفقر من جهة، ثم يحتقر المصابين بهما من الجهة الأخرى. وبذا ينمي فيهم عقداً نفسية لا خلاص منها.. فوحدهم الأيتام والفقراء يستيقظون مبكرين قبل الجميع، حتى لا يسبقهم إلى العذاب أحد.. والأغنياء الطغاة يفعلون بهم ما يشاؤون، فيبحثون عن زلاتهم وينذرونهم بالويل والثبور.

ثم نظر النبي صلى الله عليه وسلم في كيفية إصلاح الوضع المالي لليتيم، فرأى صلى الله عليه وسلم أن البداية هي ضرورة أن يتمسك أولياء وأوصياء اليتامى بقيم الحق والعدل، دون الإنسياق وراء رغباتهم الذاتية، ومصالحهم القريبة ولذاتهم العابرة، حيث تسقط فكرتا الحق والعدل هاتين. ومن ثم فإن إعادة الأمور إلى نصابها – في هذا المجال كما في غيره من المجالات – سوف تتحقق دون ريب بمجرد بث روح المسؤولية لدى أولياء وأوصياء اليتامى، وتجردهم وتسخير طاقتهم لتحقيق هذه القيم ومطاردة الظلم والباطل المتمثلين بالاستغلال والضطهاد والتحكم والإثراء على حساب اليتامى.

هكذا، حدد النبي صلى الله عليه وسلم معالم الطريق إلى تشكيل نظام مالي لليتيم كفيل بإعادة الحق إلى نصابهما لدى اليتيم.. ونشر السعادة والرفاهية على مدى مجتمع اليتامى بدلاً من الظلم والاستغلال والتحكم، وهذا الطريق واضح، ومعالمه محددة من الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. وعليه أن يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في هذا الميدان – كما في الميادين الأخرى – من الداخل من داخل نفسه ووجدانه أولاً، وداخل أهل بيته ثانياً، ثم ينتقل بعد هذا إلى الخارج لينشر العمل على الجميع، ذلك هو الطريق إذن أن يبدأ الإنقلاب منه على هذا المجتمع الجاهلي الفاسد الذي ضاعت فيه حقوق اليتامى، ودار الحوار بينه وبين أصحابه كحاكم مسؤول يعلم أجهزة الدولة وإداريها الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه لتحقيق العدل وإلغاء الاضطهاد والإستغالال إلغاءاً وأكل مال اليتيم بلا سبب وجاءت كلماته حمم من نار

الحق تتفجر من كل كلمة فيها.. فقال: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قالَ:... وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ "[1].

ومن لم يستجب فقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم كيف يفطمه عن الملذات وأكل أموال اليتامى بالباطل، وحذرهم صلى الله عليه وسلم قائلاً: " انطَلَق بي إلى خَلْقٍ من خَلْقِ الله كثير، رِجَال، كل رجل له مِشْفَران كمشفري البعير، وهو موَكَّل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم، ثم يُجَاءُ بِصَخْرَةٍ من نار فَتُقْذَف في فِي أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم خُوار وصُرَاخ. قلت يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْمًا إنما يأكلون في بطونهم نارا وسَيَصْلَوْن سَعِيرًا "[2].. فيبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن أذنه وأنفه. وعينيه يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم، ويقول صلى الله عليه وسلم يُبعَثُ يومَ القيامةِ قومٌ مِن قبورِهم تَأَجَّجُ أفواهُهم نارًا "مَن هم يا رسولَ اللهِ ؟ قال: "**ألم ترَ اللهَ يقولُ: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}**"[3].

هذا، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بقطع كل السبل أمام أولياء اليتامى الذين يأنفون أن يكونوا لصوصًا أو أن يسموا لصوصًا، ثم لا يعملون إلا عمل اللصوص، حيث كانوا يتلاعبون بأموال اليتامى فيأخذون أطايب المال ويستبدلونه بخبيثه، فكان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول: شاة بشاة ويأخذ الدرهم الجيد، ويطرح مكانه الزيف، ويقول درهم بدرهم، وقد كشف الله للنبي صلى الله عليه وسلم فساد هؤلاء يقول تعالى: {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً}(النساء: 2) فقد جعل الله مثل هذه الأعمال والتصرفات خطرها جسيم وإثمها عظيم بقوله{إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً}أي إثماً كبيراً عظيماً. فأمر الله تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة

---

(1) رواه البخاري حديث رقم: (2766) .

(2) رواه الطبري في تفسيره،٨/٢٧.

(3) شعيب الأرناؤوط: تخريج صحيح ابن حبان، حديث رقم: (5566) .

ونهى عن أكلها وضمها إلى أموال من هو قائم عليها، فلا تتبدلوا الحرام من أموال الأيتام بالحلال من أموالكم.

إن روعة النبي صلى الله عليه وسلم هو تدريب صحابته على التجرد الكامل بفطم أنفسهم عن أستحلال مال اليتامى فكان النبي الكريم يطلب منهم ويعزم عليهم أن يكونوا متورعين في أموال اليتامى لا ينفقون منها إلا القدر اللازم.. أتى رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني فقير ليس لي شيء ولى يتيم. قال فقال: "**كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلَا مُبَادِرٍ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ**"[1]. فقد أباح النبي الكريم لهذا الوصي الفقير الأكل من مال اليتيم على ما يستحقه من العمل فيه والاستصلاح له وأن يأخذ منه بالمعروف على قدر مثل عمله.. يجوز للولي أن يأخذ لنفسه جزءاً من ربح مال اليتيم إذا عمل فيه.. لولي اليتيم أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف وهو الوسط من غير إسراف بقدر حاجته الضرورية من سد الجوعة وستر العورة لقول ابن عباس أنه قال: "**يَأْكُلُ الْفَقِيرُ إِذَا وَلِيَ مَالَ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَى مَالِهِ وَمَنْفَعَتِهِ مَا لَمْ يُسْرِفْ أَوْ يُبَذِّرْ**"[2].

لم يكتف النبي الكريم بحفظ المال بل كان حريصاً على أن يوفر على اليتامى أموالهم ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجري إلا في عروقهم، ولا يرى أن يضيع في الكماليات والشكليات، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من ترك أموال اليتامى مجمدة من غير استثمار لها ينافي مصلحتهم، فتصرف الأولياء في أموال الأيتام منوط بمصلحتهم، وكما يلزمهم رعاية مصلحة الأيتام في أنفسهم بالتربية والتقويم، فإنه يلزمهم أيضاً رعاية أموالهم بتنميتها بالتجارة ونحوها، ولكن على سبيل الندب والإرشاد إلى الأفضل، وفقاً لقوله تعالى: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ}**، وقام صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلاً: "**أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ، وَلَا يَتْرُكْهُ**

---

(1) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي الشوكاني، دار الحديث، القاهرة ، 374/5.

(2) رواه البخاري: حديث رقم(2640) .

حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ"[1].. والقصد من الحديث أن ينمى المال لأن في نماءه حق الزكاة، فإن عُطل المال أستحقت الزكاة فأخذت من رأس المال، وبهذا فأنها تأكل منه وتستهلكه فينقص سنة بعد سنة، وفي هذا ضرر لليتيم. أما إن عُطل المال ولم تؤد زكاته فهو الكنز المنهي عنه في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** (التوبة: 34). وكنز المال وبقاؤه في صورة عاطلة **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}** (هود: 61). وعمارة الأرض تكون باستثمار خيراتها التي سخرها الله للإنسان بما يحقق صالح الفرد والمجتمع، وهي تفوق التنمية الاقتصادية بالمفهوم الحديث... ولا شك أنّ الاستثمار في أموال اليتامى مقيداً بما إذا لم يكن في اتجار الوليّ بها أو إبضاعها للغير أو دفعها إليه مضاربةً أو شركةً مخاطرّة بمال اليتيم... وقد روي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: " كَانَتْ تُعْطِي أَمْوَالَ الْيَتَامَى الَّذِينَ فِي حَجْرِهَا، مَنْ يَتَّجِرُ لَهُمْ فِيهَا "[2]، ويقول القاسم بن محمد: " كُنَّا يَتَامَى فِي حِجْرِ عَائِشَةَ، فَكَانَتْ تُزَكِّي أَمْوَالَنَا، ثُمَّ دَفَعَتْهُ مُقَارَضَةً، فَبُورِكَ لَنَا فِيهِ "[3]، فقد دفعت عائشة رضي الله عنها لأموال اليتامى الذين كانوا في حجرها مضاربة بأموالهم.. ولأنّ المضاربة بمال اليتيم أحظُّ له، لتكون نفقته من فاضله وربحه، وذلك ما يفعله البالغون في أموالهم وأموال من يعز عليهم من أولادهم.. ذلك هو إذن شعار النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضي الله عنهم أجمعين..

هناك معاملات مالية مثل المضاربة، والمساقاة والمزارعة، فإذا كان لليتيم شجر فإنّ لوليه أن يعمل في الشجر مساقاةً بنفسه، وله أن يدفعه لغيره أيضاً، وإذا كان له أرض فإنّ لوليه أن يزارع فيها بنفسه، وله دفعها لغيره مزارعةً، لكن وفيما يتعلّق بأخذ

---

(1) رواه البخاري: حديث رقم (641) .

(2) أخرجه مالك في الموطأ ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ،ط1، أبو ظبي ، الإمارات: 1425 هـ / 2004 م حديث رقم (587) .

(3) مصنف عبدالرازق: حديث رقم، (6984) .

الوليّ جزءاً من الربح مقابل مزارعته أو مساقاته، فمن حق الوليّ يأخذ مقابلاً لعمله، وأن يدفع لمن قام بالمزارعة أو المساقاة بأرض أو شجر اليتيم جزءاً من الربح.

وتشدد النبي صلى الله عليه وسلم في محاسبة أولياء اليتامى فها هو صلى الله عليه وسلم يحاسب علياً بن أبي طالب وهو ابن عمه وصهره.. عن بن أبي رافع: " **أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أقطع أبا رافع أرضاً، فلما مات أبو رافع باعها عمر رضي الله عنه بثمانين ألفاً فدفعها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكان يزكيها. فلما قبضها ولد أبي رافع عدوا مالهم فوجدوها ناقصة فأتوا علياً فأخبروه، فقال: أحسبتم زكاتها، قالوا: لا، قال: فحسبوا زكاتها فوجدوها سواء، فقال علي رضي الله عنه: كنتم ترون عندي مال لا أؤدي زكاته**"[1].

وإزاء هذه الشدة والصرامة التي أخذ بها النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وصحابته كباراً وصغاراً حيال أموال اليتامى، نجد صورة أخرى للنبي الكريم، صورة النبي الأب الذي ينظر إلى أبناء أمته نظرة ملؤها الشفقة والرحمة والحرص على نشر العدل على الجميع، وعدم ذهاب قطرة واحدة من عرق مسلم أو دمعه أو دمه، عبثاً.. إنه المسؤول عن كل قطرة تذهب جفاء لأي مسلم في أي مكان.. فما هذه القطرة إلا الجهد والكدح والنصب الذي بذله ذلك المسلم من أجل أن يحيى حياة أكثر رخاءً.. وأن ذهابها يعني – بوضوح – اغتصاب هذا الجهد لمصلحة إنسان ما حتى ولو كان يتيماً.. وللوصي أن يتجر في مال اليتيم، وله دفعه لغيره مضاربةً، وله أن يعمل به مضاربةً أيضاً بحصة شائعة من الربح، فإن جعل ماله مضاربة عند نفسه، فينبغي عليه أن يشهد على ذلك عند الابتداء، فإن لم يشهد يحلّ له الربح فيما بينه وبين الله، لكن القاضي لا يصدقه في ذلك. ويرى جواز أخذ الوليّ جزءاً من ربح المضاربة، وجواز إعطاء غيره ممن ضارب بالمال، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً}**.

---

(1) سنن الدارقطني، حقه شعيب الارنؤوط وأخرون، مؤسسة الرسالة،ط1، بيروت، لبنان: 1424 هـ – 2004 م ، برقم (7343) ، 2/ ٩٦.

حقه في بيت المال:

لما مات والد النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك له إلا خمسة من الإبل وجارية اسمها أم أيمن بركة الحبشية، تركة لا تكفي مؤنته، ولكن عناية الله قد أغنته، يقول تعالى: **{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ}** (الضحى: 7). وسواء كان الغنى المقصود هو الإنفاق من أبي طالب، أو تيسير طريق التجارة التي صرفتها إليه السيدة خديجة رضي الله عنها، فإن المال هو العصب الذي يقوم بحفظ حياة الإنسان ليحقق له احتياجاته كإنسان يأكل، ويشرب، ويلبس. أن الغنى هو ما يقابل الفقر على كل حال، ولذلك أخذت الآية الكريمة تذكر نبي الرحمة بهذه النقطة الحساسة لتدفع في نفسه الهمة على مساعدة الضعفاء ممن مروا بهذه المرحلة العسيرة. فاليتيم وهو فقير بحاجة إلى من يمد له يد العون فيشبع له بطنه، ويستر له عريه.

لذا ربى نبي الإسلام أصحابه الكرام على أن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الأيتام والفقراء، من خلال قول الله تعالى: **{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}** (الإسراء: 26).

وقوله تعالى: **{ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}** (الروم: 38 – 39).

ولقد حدد القرآن الكريم الأصناف التي يتوجب دفع أموال الزكاة المفروضة لها فقال سبحانه: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** (التوبة:60).

وبما أن الأيتام فقراء فهم يأخذون من سهم الفقراء والمساكين، فهم داخلون فيه دخولا أوليًّا، بل أولى الفقراء بالأخذ لعجزهم عن الكسب، وفقدهم للعائل الكاسب؛ ومن

هنا فقد جعل الله عز وجل لهم نصيبًا في كل من الغنيمة والفيء، تسلية لقلوبهم، وحفظًا لكرامتهم الآدمية.

ومن هنا فإن الأموال التي يدفعها الأغنياء للفقراء والمحتاجين ومن بينهم الأيتام بطبيعة الحال إنما هي حقوق أصيلة فرضها الله تعالى في أموالهم، وليست مِنَّة ولا تفضلا من الغني على الفقير، بل إنها حق كما أخبر الله تعالى عنها؛ ولذا ورد عن بعض السلف أن قال: "لو كان الأمر بيدي، لقطعت أيدي الأغنياء الذين يمنعون الفقراء حقوقهم، لأنهم لصوص، فالله عز وجل سماها حقوقًا".

هذا علاوة على ما أمروا به من التصدق والتبرع زيادة في الأجر والفضل، ومن هنا قال علماؤنا: إنه ما جاع يتيم أو فقير قط إلا بظلم غني، لأنه ترك أداء ما عليه من حقوق، فضاع الأيتام والفقراء، ولقد وعى أغنياء الصحابة هذا الدرس، ولذا نراهم مراراً عديدة يتخلون عن أجزاء كبيرة من ثرواتهم التي كدحوا من أجلها السنين الطوال.. وفي أحيان أخرى يتخلون عنها كليًا لإصلاح حال أيتام المسلمين وفقرائهم، ثم يعاودون الكرة من من جديد في الكدح والاكتساب.. وبنضرب على ذلك مثالا واحدًا من أمثلة كثيرة، وهو سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فنراه يتبرع بماله للمسلمين في عدة مرات، فمرة يشتري أحد الآبار من يهودي بآلاف الدراهم ويهبها للمسلمين جميعًا وقفًا عليهم؛ وما ذلك إلا لأن ذلك اليهودي كان يبيع عليهم الماء بأثمان باهظة، فاشتراها عثمان وجعلها وقفا.

وفي عام الجدب والقحط في غزوة تبوك التي سمي جيشها بجيش العسرة يجهز ثلث الجيش كاملا وحده، فقدم كما يقول ابن شهاب الزهري: تسعمائة وأربعين بعيرًا، وستين فرسا أتم بها الألف. كما تبرع بالأموال السائلة أيضًا فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: "**جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ**

جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مرَّتَيْنِ"[1].

فهل يفتح الله تعالى آذان عُبَّاد المال، ومحتكري قوت العباد شحًّا وجشعًا إلى صوت هذه العظمة العثمانية حتى تدلف إلى قلوبهم فتهزها هزة الأريحية والعطف، وتوقظ فيها بواعث الرحمة والإحسان بالفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى وذوي الحاجات من أهل الفاقة والبؤس، الذين طحنتهم أزمة الحياة واعتصرت دماءهم شرابا لذوي القلوب المتحجرة من الأثرياء؟! فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحة عثمانية في إنفاق الأموال على الفقراء والمساكين والمحتاجين تسري بينهم تعاطفًا ومؤاساة وبرًّا وإحسانا[2].

وقد كان النبي صلى الله عليه من شدة عنايته بأطفال الشهداء يقدمهم على غيرهم في العطايا، حتى على بناته وأقربائه، ومن ذلك ما ورد عن أم الحكم أو ضباعة ابنتي الزبير بن عبد المطلب –عم النبي صلى الله عليه وسلم– عن إحداهما أنها قالت: **"أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَبْيًا، فَذَهَبْتُ أَنَا وَأُخْتِي، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَأْمُرَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنَ السَّبْيِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "سَبَقَكُنَّ يَتَامَى بَدْرٍ"**[3].

ويبدو أن الذي حث فاطمة على الذهاب إلى أبيها لطلب خادم هو زوجها علي بن ابي طالب شفقة بها، فيقول علي[4]: **"شَكَتْ لِي فَاطِمَةُ مِنَ الطَّحِينِ، فَقُلْتُ: لَوْ أتيتِ أَبَاكِ، فَسَأَلْتِيهِ خَادِمًا، قَالَ: فَأَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ، فَرَجَعَتْ مَكَانَهَا، فَلَمَّا جَاءَ أُخْبِرَ، فَأَتَانَا، وَعَلَيْنَا قَطِيفَةٌ إِذَا لَبِسْنَاهَا طُولًا خَرَجَتْ مِنْهَا**

---

(1) رواه الترمذي، حديث رقم (3701).

(2) تيسير الكريم المنان بسيرة عثمان بن عفان، لعلي الصلابي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1433 هـ. ص 52.

(3) رواه أبو داود، حديث رقم (2987) .

(4) رواه ابن حبان، حديث رقم (6922).

جُنُوبُنَا، وَإِذَا لَبِسْنَاهَا عرضا خرجت منها أقدامنا ورؤوسنا، قَالَ: "يَا فَاطِمَةُ، أُخْبِرْتُ أَنَّكِ جِئْتِ، فَهَلْ كَانَتْ لَكِ حَاجَةٌ"؟ قَالَتْ: لَا، قُلْتُ: بَلَى، شَكَتْ إِلَيَّ مِنَ الطَّحِينِ، فَقُلْتُ: لَوْ أَتَيْتِ أباك، فسألتيه خادمان فَقَالَ: "أَفَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تَقُولَانِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَأَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، تَسْبِيحَةً، وتحميدة، وتكبيرة".

فمع هذه الحاجة الماسة إلى الخادم، لم يعط النبي الكريم ابنته وأبناء عمومته من السبي شيئًا، وفضل الأيتام والفقراء، وقدمهم على أقرب الناس إليه، ولكنه دلهم على ما هو أهم وأفضل، ألا وهو ذكر الله تعالى، والاستعانة به.

وإذا كان اليتيم غنياً فلا يكون محلاً للصدقة أو الزكاة، طالما أنّ له ما يكفي حاجاته في الحياة، وإن جاز إعطاؤه من صدقة التطوع، وإنما هو يحتاج إلى الرعاية والحفظ والأستثمار، ويعني بالحفظ هنا حفظ ماله خاصةً، لأنّ المال هو عصب الحياة وبه قوامها وسعادتها، فلابد حينئذ من صون ماله صيانة تامة، ورعايته إلى أن يصير راشداً.

يقول ابن عباس رضي الله عنه: "لمّا أنزل الله عز وجل: **{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**، **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا}** الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكلَه أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل: **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** ، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه"[1]. ولم يجيز للوليّ الغني أن يأكل من مال اليتيم شيئاً، لقوله تعالى: **{وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ}** (النساء: 6).

---

(1) أخرجه أبو داود، رقم(2873) .

إن هذه الروح الجديدة هي التي عمل النبي صلى الله عليه وسلم على إحلالها في المجتمع الإسلامي، لينشىء تقاليد إنسانية راقية لا تعد مجرد وثبة، أو نهضة، في المجتمع العربي. إنما هي في حقيقتها نشأة أخرى، وميلاد جديد، وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية!

والذي يجب أن ينبه إليه المسلم هنا أن هذه النشأة الجديدة، لم تكن تطوراً تدريجيًّا مسبوقاً بأية خطوات تمهيدية له؛ أو أنه انبثق من واقع مادي تغير فجأة في حياة هذا الشعب!.. فالانتقال من نظام الإرث والملك على أساس أحقية المحارب في التركة إلى إقامة نظام كامل على أساس الحق الإنساني، وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية, لا بصفتهم محاربين! هذه النقلة لم تنشأ لأن المجتمع قد انتقل إلى أوضاع آمنة مستقرة لم تعد فيها قيمة للمحاربين، فقضى على الحقوق المكتسبة للمحاربين؛ لأنه لم يعد في حاجة إلى تمييزهم!.. كلا! فقد كان للمحاربين في العهد الجديد قيمتهم كاملة؛ وكانت الحاجة إليهم شديدة! فماذا حدث إذن؟

إنه الإسلام الذي أوجد هذا الروح الجديدة في هذا الأشلاء البشرية المتداعية، ومن ثم كان هذا الميلاد الجديد للإنسانية في أرقى صورها، الميلاد الذي انبثق من خلال كتاب الله الخاتم؛ ومن خلال وحي السماء الخالد؛ فأقام مجتمعاً جديداً طاهرًا نقيًّا، على الأرض نفسها، وفي الظروف ذاتها التي رتع فيها الشيطان أحقابًا متطاولة، ودون انقلاب في عملية الإنتاج وأدواتها! ولكن الإنسان نفسه هو الذي تغير من الداخل، فأحدث هذا الانقلاب في التصور، إذا أصبح للحياة عنده هدف، وللتصرفات عنده قيمة.

وحقيقة أن المنهج القرآني قد كافح طويلاً لطمس كل معالم الجاهلية في النفوس، ومحوها من الطباع، وتثبيت المعالم الإسلامية الجديدة. وحقيقة كذلك أن رواسب الجاهلية ظلت تقاوم هذا المنهج النوراني؛ وظلت تعاود الظهور في بعض الحالات الفردية ؛ أو تحاول أن تعبر عن نفسها في صور شتى، إلى أن تلاشت من مجتمع الصحابة.

لقد كان هناك شيء جديد واحد في حياة هذا المجتمع العربي عصر الرسالة، شيء هبط عليه من الملأ الأعلى، فاستجابت له النفوس البشرية الطاهرة؛ لأنه يخاطب فيها الفطرة التي أودعها الله فيهم، يخاطب فيهم قلوبهم وعقولهم جميعًا، ومن ثم وقع هذا التغيير الجذري في حياتهم، ومن هنا تم هذا الميلاد الجديد للإنسانية، هذا الميلاد الذي تغيرت فيه ملامح الحياة البشرية في كل جوانبها عن الملامح المعهودة في الحياة الجاهلية السابقة، ومهما يكن هناك من صراع تحدث عنه المؤرخون فإنه قد وقع بين الملامح الجديدة والملامح القديمة دون أن يكون هناك دخل لأي شيء آخر.

لقد تم هذا كله؛ لأن هناك رسالة علوية؛ وتصوراً اعتقادياً جديدًا هو الذي كان له الأثر الأول والأخير في هذا الميلاد الجديد، الذي لم تقتصر موجته على المجتمع الإسلامي؛ بل أينعت على البشرية كلها.

بعد أن مررنا على منهاج النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم في كفالة اليتيم وتربيته، وعرفنا أن تأكيد النبي الكريم الدائم على حقوق اليتيم كان نابعًا من صميم شعوره بآلام اليتامى، ويوازيه قولًا وعملًا؛ وبالتالي فقد كفل النبي الهاشمي كفالة مباشرة مجموعة من الأيتام، ورباهم على عينه، فنشأوا في بيته صلى الله عليه وسلم، وتحت سمعه وبصره، فمنهم من كان من أهله، ولكن النبي الكريم كان يتفقده ويرعاه، وكان لرعايته لهم جميعًا أعظم الأثر على حياتهم العامة والخاصة، حتى أصبحوا روادًا وقادة وسادة، وفاقوا من تربوا في أحضان آبائهم وأمهاتهم.

أحفاده الأيتام:

من أهم الأيتام الذين تعافدهم النبي صلى الله عليه وسلم بالرعاية المباشرة حفيدته **أمامة بنت أبي العاص بن الربيع**، فهي ابنة السيدة زينب كبرى بناته صلى الله عليه وسلم، وأولهن زواجًا، وبنتها أحب أهل النبي إليه ، ومن أشرف النساء وأفضلهن، وقد كان أبوها أبو العاص بن الربيع أحد رجال مكة المعدودين بمحاسن المكارم، وكان يُقال له الأمين؛ إذ عُرِف باستقامته في تجارته لقريش، وأداء الحقوق لأصحابها، وقد كان أبو العاص مواخيًا مصافيًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يُكثر من زيارته في منزله، وقد أثنى عليه النبي الكريم أمام أصحابه الكرام وقال صلى الله عليه وسلم: "**حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَأَوْفَى لِي.**"[1].

ولم تكن السيدة أمامة رضي الله عنها يتيمة الأب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان ذلك حدث بعد ذلك في خلاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولكنها كانت يتيمة الأم، فقد ماتت أمها في العام الثامن للهجرة[2]، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بها، والعطف عليها.

---

(1) البخاري، حديث رقم (2943) .

(2) ابن حجر: الإصابة 8/ 152 .

لقد كانت أمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها أحب أحفاد الرسول إليه؛ فقد **كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي وَأُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ عَلَى عَاتِقِهِ. فَإِذَا رَكَعَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا**[1].

وهذا يدل علي شدة عطفه صلى الله عليه وسلم عليها، حتى إنه ليحملها وهو يقف بين يدي الله تعالى يصلى بالمسلمين إمامًا.

وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أُهديت له هدية فيها قلادة من جزع. فقال: «**لَأَدْفَعَنَّهَا إِلَى أَحَبِّ أَهْلِي إِلَيَّ**».

فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة. فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم **أُمامة بنت زينب فأعلقها في عنقها**[2].

وعن السيِّدة عائشة –أيضًا–: أنَّ النجاشي أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حِليةً فيها خاتَم من ذهب فأخذه وإنَّه لمعرِضٌ عنه فأرسل به إلى ابنة ابنته زينب فقال: "**تَحَلِّي بِهَذَا يَا بُنَيَّةُ**"[3] فتحلَّت به كما تحلَّت بعطف جدِّها ورعايته.

لقد أوصت السيِّدة فاطمة رضي الله عنها –وهي خالة أمامة– زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتزوَّج أمامة بعد وفاتها، فتزوَّجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد فاطمة، زوَّجها منه الزبير بن العوام، وكان أبوها قد أوصى بها إلى الزبير، فلمَّا قُتِل عليٌّ فآمت منه أمامة، قالت أم الهيثم النخعية:

أَشَابَ ذَوَائِبِي وَأَذَلَّ رُكْنِي... أُمَامَةُ حِينَ فَارَقَتِ الْقَرِينَا

تُطِيفُ بِهِ لِحَاجَتِهَا إِلَيْهِ... فَلَمَّا اسْتَيْأَسَتْ رَفَعَتْ رَنِينَا[4]

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، 32/8.

(2) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، علي محمد البجاوي، دار الجيل،ط1، بيروت: 1412هـ/1992م، 1789/4.

(3) رواه أبو داود، حديث رقم (4235) .

(4) الإصابة في تمييز الصحابة 24/8، 25.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أمر المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يتزوَّج أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع رضي الله عنهم زوجته بعده، لأنَّه خاف أن يتزوَّجها معاوية رضي الله عنه، فتزوجها المغيرة، فولدت له يحيى، وبه كان يُكنَّى، وظلت معه حتى توفيت رضي الله عنها[1].

تُوفِّيت أمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها وهي عند المغيرة بن نوفل بن الحارث رضي الله عنه، ولم تذكر المصادر تاريخ وفاتها.

أيتام في حجر النبوة:

المقصود بـ " حجر النبوة " هنا أنهم كانوا ربائب للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث تزوج من أمهاتهم، بغرض التخفيف عنهم وعنهن، وليتمتعوا بالرعاية المباشرة منه صلى الله عليه وسلم، فقد كان النبي الكريم يتزوج المرأة ليكون كافلا لها، ولأيتام صغار في حجرها، ولكن المغرضين من أصحاب الأهواء انحرفوا في هذه القضية انحرافًا فاحشًا، واعتبروا النبي الكريم كأمثالهم من ذوي الشهوات الرخيصة، وادعوا ذلك عليه لمرض في نفوسهم، وسوف نبين في هذا المبحث من خلال التعرف على ربائب النبي الكريمأهداف زواجه صلى الله عليه وسلم من بعض الأزواج، ونبين بوضوح أن ذلك الزواج كان عبئًا ثقيلا تحمله النبي الكريم، وليس بغرض المتعة واللذة كما يقول المنافقون والكفرة والذين في قلوبهم مرض.

أبناء أمنا خديجة:

من المعلوم أن السيدة خديجة رضي الله عنها تزوجت قبل النبي صلى الله عليه وسلم مرتين، مات كل منهما عنها قبل أن يتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم؛ **الأولى:** من عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، وولدت له ابنتها هند بنت عتيق، وهذه لم تكن في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانت مع قومها، وقد تزوجت

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب 1789/4.

ابن عمها صيفي بن أمية بن عابد، وولدت له ابنه محمد بن صيفي، وأبناء محمد يقال لهم بنو الطّاهرة لمكان خديجة..**والثانية:** من أبي هالة بن النباش بن زرارة الأسيدي التميمي، وولدت له ولدان؛ **الأول:** هالة بن أبي هالة، ويبدو أنه كان بالغًا، فلم يكن في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، بل كان حليف بني عبد الدار بن قصي، له صحبة، روى بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. **والثاني:** هند بن أبي هالة، وهو ربيب رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نشأ في كنفه ورعايته، قبل بعثة النبي الإسلام وقد أثرت فيه هذه النشأة كثيرًا، ونلاحظ هذا الأثر في حبه الشديد للنبي صلى الله عليه وسلم، وتعلقه به، وَكَانَ هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ فَصِيحًا بَلِيغًا أديبا يجيد الوصف، حتى إنه وصف النبي الكريم، فأحسن وأتقن. وقد شرح كل من أبي عبيدة وابن قتيبة وصفه ذلك، لما فيه من الفصاحة والبلاغة وفوائد اللغة، علاوة على ما فيه من التعرف على قسمات النبي الكريم وملامحه الخلقية. فقال رضي الله عنه: "كان رسول الله صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هُو وفره أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ فِي غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، لهُ نور يعلوه، ويحسبه من لمْ يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية فِي صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادن متماسك، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين السرة واللبة، بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلِك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شئن الكفين والقدمين، سائل أو سائن الأطراف، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو الماء عنهما، إذا زال زال قلعا، يخطو تكفأ، ويمشي هونا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، يبدر من لقيه بالسلام".

وهذا الإعجاب والحب، يدل على ما كان يشمله به النبي صلى الله عليه وسلم من الرعاية والإكرام والبر وهو في حجره.

أبناء أمنا رملة:

ومن أهم الأمثلة على رقة النبي صلى الله عليه وسلم واهتمامه بجميع الأمة من مشرقها إلى مغربها، ورعايته للأرامل والأيتام ما فعله النبي الكريم مع السيدة حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، فقد أحس النبي بمأساة أمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب، حيث هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش (والد حبيبة) إلى أرض الحبشة، فارتد عن الإسلام وتنصّر، ومات هناك نصرانيًّا، وثبتت أمها على الإسلام، وبالتالي كانت أمها في مأساة حقيقية؛ فقد اجتمع عليها الحزن من كل جانب، فهي قد فقدت الوطن وصارت في بلاد غريبة، وفقدت الزوج لأنه تنصر ثم ما لبث أن مات، وفقدت حنان أبيها من قبل، فهو كافر مشرك يسومها سوء العذاب من أجل دينها، وتيتمت طفلتها الغالية، وأصبحت بلا عائل.. فكان لا بد من العزاء والسلوى لهذه الأم المكلومة المهاجرة الصابرة، وتمثل هذا العزاء في مشاركة النبي الكريم لها في مصيبتها، تخفيفًا عنها على بعد ما بينهما من مسافات، وسلوى هن بعض ما تعانيه، فما كان منه النبي الكريم إلا أن أرسل إليها يخطبها لنفسه، وفي هذا الصدد تقول السيدة أم حبيبة رضي الله عنها:

ما شعرت إلا برسول النجاشي جارية يقال لها أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت علي، فأذنت لها، فقالت: إن الملك يقول لك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلي أن أزوجكه. فقلت: بشرك الله بخير. قالت: ويقول لك الملك: وكلي من يزوجك. فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكلته، وأعطيت

أبرهة سوارين من فضة كانت علي، وخواتيم فضة كانت في أصابعي، سرورا بما بشرتني به. [1]

فكان ذلك الزواج المبارك نعم العزاء والسلوى عما هي فيه من المصائب والآلام، وخير مشاركة وجدانية لمصائبها وآلامها، ونالت ابنتها حبيبة شرف تربية النبي صلى الله عليه وسلم لها في كنف بيت النبوة.

وقد أثمرت هذه التربية خير ثمارها، فأصبحت راوية للأحاديث عن أمها عن النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، فنشرت العلم، وكل من يعمل به يكتب لها به أجر من الله تعالى.

أبناء أمنا أم سلمة:

وما فعله فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان كرره مع السيدة أم سلمة رضي الله عنها واسمها "**هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية**"، وكانت متزوجة من أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي رضي الله عنه، ومات عنها زوجها سنة 4هـ عن أربعة أولاد صغار هم: سلمة، وعمر، ودرة، وزينب، فتيتم أطفالها، وأصبحت لا عائل لها، ولا لأطفالها، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم على عاتقه رعاية أبنائها، وذلك بالزواج منها وكفالتهم جميعًا كما يكفل أبناءه.

وفي ذلك تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها: "أتانِي أبُو سلمة يوْمًا مِنْ عِنْدِ رسُولِ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم فقال: لقدْ سمِعْتُ مِنْ رسُولِ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم قوْلًا فسُرِرْتُ بِهِ، قال: "**لا يُصِيبُ أحدًا مِن الْمُسْلِمِين مُصِيبةٌ فيسْتَرْجِع عِنْد مُصِيبتِهِ، ثُمّ يقُولُ: اللّهُمّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبتِي، واخْلُفْ لِي خيْرًا مِنْها، إلّا فُعِل ذلِك بِهِ**"، قالتْ أُمُّ سلمة: فحفِظْتُ ذلِك مِنْهُ، فلمّا تُوُفِّي أبُو سلمة اسْتَرْجعْتُ وقُلْتُ: اللّهُمّ أْجُرْنِي فِي

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، تحقيق/ علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت: 1415هـ / 1994 م ،303/7.

مُصِيبتِي واخْلُفْنِي خيْرًا مِنْهُ، ثُمّ رجعْتُ إِلى نفْسِي قُلْتُ: مِنْ أيْن لِي خيْرٌ مِنْ أبِي سلمة؟ فلمّا انْقضتْ عِدّتِي اسْتأْذن عليّ رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم وأنا أدْبُغُ إِهابًا لِي، فغسلْتُ يديّ مِن الْقرظِ وأذِنْتُ لهُ، فوضعْتُ لهُ وِسادة أدمٍ حشْوُها لِيفٌ، فقعد عليْها فخطبنِي إِلى نفْسِي، فلمّا فرغ مِنْ مقالتِهِ، قُلْتُ: يا رسُول اللّهِ، ما بِي أنْ لا تكُون بِك الرّغْبةُ فِيّ، ولكِنِّي امْرأةٌ فِيّ غيْرةٌ شدِيدةٌ فأخافُ أنْ ترى مِنِّي شيْئًا يُعذِّبُنِي اللّهُ بِهِ، وأنا امْرأةٌ قدْ دخلْتُ فِي السِّنِّ، وأنا ذاتُ عِيالٍ، فقال: "**أمّا ما ذكرْتِ مِن الْغيْرةِ فسوْف يُذْهِبُها اللّهُ عزّ وجلّ مِنْكِ، وأمّا ما ذكرْتِ مِن السِّنِّ فقدْ أصابنِي مِثْلُ الّذِي أصابكِ، وأمّا ما ذكرْتِ مِن الْعِيالِ فإِنّما عِيالُكِ عِيالِي**"، قالتْ: فقدْ سلّمْتُ لِرسُولِ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، فتزوّجها رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، فقالتْ أُمُّ سلمة: فقدْ أبْدلنِي اللّهُ بِأبِي سلمة خيْرًا مِنْهُ رسُول اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم"[1].

وكانت زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها ما زالت رضيعة عندما تزوج النبي الكريم بأمها، فكانت أمها ترضعها في حجره، وكان صلى الله عليه وسلم حييًا كريمًا إذا جاء ورأى زينب في حجرها لترضعها، يستحي فيرجع، ففعل ذلك مرارًا، ففطن عمار بن ياسر رضي الله عنه –وهو أخ لأم سلمة من أمها–، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته أو عند أحد النساء، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أين زناب؟ فقالت قريبة ابن أبي أمية –ووافقها عندها– أخذها عمار بن ياسر. فقال صلى الله عليه وسلم: **إني آتيكم الليلة**.."[2].

وتلقى صبية أبي سلمة الأربعة رعاية النبي صلى الله عليه وسلم فاعتبر صلى الله عليه وسلم نفسه أبًا لهم بعد أبيهم، فهو يحفظهم ويدبر شئونهم، ويعلمهم بنفسه ويربيهم، ويقوم سلوكهم، فصاروا علماء وقادة ومربين، ورواة للعلم.

ويظهر لنا أثر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بهم جليا من أمور عدة:

---

(1) أخرجه أحمد، حديث رقم (16388) .

(2) أخرجه مسلم، حديث رقم (1460) .

الأول: أنه زوج ربيبه سلمة بن أبي سلمة بأُمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم، أسد الله وأسد رسوله، وهذا يدل على شدة عناية النبي الكريم بأبناء أبي سلمة، حيث أنزلهم هذه المنزلة العظيمة، من مصاهرة بيت النبوة، وهم أيتام ضعاف لا مال لهم.

الثاني: تأديبه صلى الله عليه وسلم لعمر بن أبي سلمة في رفق وحنان فيقول عمر: "كنت في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**"، فما زالت تلك طعمتي بعد"[1].

وفي رواية: "قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ادن بني. سم الله وكل مما يليك**".

ففي قوله: "**ادن بني**" من الرفق في التعليم، والحنان في المعاملة ما يدل على عظمته صلى الله عليه وسلم، وسدة رعايته للأيتام وعدم الضيق من تصرفاتهم الطفولية الطائشة إن وجدت، بل يعالجها في مودة ورفق، ولم يكن هذا موقفًا طارئًا أو جملة عابرة منه صلى الله عليه وسلم، بل كان ذلك دأبه معه دائمًا، فلا عجب بعد ذلك أن يصير هذا الفتى ربيب بيت النبوة من القادة العظام ورواة العلم، حيث حفظ القرآن كله عن النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، وهو لم يتجاوز التاسعة من العمر؛ إذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر ابن تسع سنوات فقط. كما روى عن النبي بعض أحاديثه.

وقد شب عمر على الإيمان والتقوى وحب الجهاد في سبيل الله، فكان عمر من القادة العظام، فقد ولاه سيدنا علي بن أبي طالب ولاية فارس في عصره. ولما بعث علي بن أبي طالب إلى أم سلمة يوم الجمل أن اخرجي معي أبت أن تخرج من بيتها

---

(1) سبق تخريجه.

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنها قالت: أبعث معك أحب الناس إلي. فبعثت معه عمر بن أبي سلمة. فشهد مع علي يوم الجمل[1].

الثالث: اهتمامه بسلامة اسم زينب من الناحية الشرعية، حيث سمتها أمها برّة، فسماها النبي صلى الله عليه وسلم زينب، فعنْ مُحمّدِ بْنِ عمْرِو بْنِ عطاءٍ، قال: سمّيْتُ ابْنتِي برّة، فقالتْ لِي زيْنبُ بِنْتُ أبِي سلمة: سُمِّيْتُ برّة فنهى رسُولُ اللهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم عنْ هذا الِاسْمِ، وقال: "**لا تُزكُّوا أنْفُسكُمْ، اللهُ أعْلمُ بِأهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ**" قالُوا: فما نُسمِّيها؟ قال: "**سمُّوها زيْنبًا**".

وعمل النبي الكريم على إدخال السرور عليها، حيث كان كثيرًا ما يداعبها وهي طفلة، وينابيها مدللا لها (يا زوينب). فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: "**يا زوينب، يا زوينب مرارًا**"[2].

فنشأت زينب في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وتلقت العلم منه، وروت أحاديثه صلى الله عليه وسلم، فكانت زينب رضي الله عنها من أفقه نساء أهل زمانها.

وعن عطاف بن خالد، عن أمه، عن زينب بنت أبي سلمة، قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا دخل يغتسل تقول أمي: ادخلي عليه، فإذا دخلت نضح في وجهي من الماء، ويقول: "**ارجعي**". قالت: فرأيت زينب وهي عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء[3].

وفي رواية: فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعمرت.

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد،533/6.

(2) الجامع الصغير للسيوطي،جمع وترتيب عباس أحمد صقر،وأحمد عبد الجواد،دار الفكر،دار الفكر:1414هـ/1994م حديث رقم: (7170) .

(3) الإصابة لابن حجر، 160/8.

الرابــع: اعتنائـه الشـديد بـدرة بنـت أبـي سـلمة، ورعايتـه لهـا، حتـى ظنـت أمهـات المؤمنين أن النبـي صـلى الله عليـه وسلم سيتزوجها، فعن زينـب بنـت أبـي سلمة قالت: "إِنّ أُمّ حبِيبة قالتْ: يا رسُول اللّهِ، إِنّا تحدّثْنا أنّك ناكِحٌ دُرّة بِنْت أبِي سلمة، فقال رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم: "**أعلى أُمِّ سلمة، لوْ أنِّي لمْ أنْكِحْ أُمّ سلمة لـمْ تحِلّ لِـي، إِنّ أباها أخِي مِن الرّضاعةِ**"[1].

وهكذا كانت عناية نبي الإسلام باليتامى، وحفظه لهم، ورعايته لهم رعاية كاملة، وهم ربائبه في حجره. فأصبحوا كما ترى علماء ورواة للعلم وقادة عظماء. كما يعلمنا النبي الكريم رعايته للأيتام وأمهاتهن، وبخاصة أمهات البنات ورعايته لهن، واهتمامه بهن اهتمامًا شديدًا، فتربية النساء في الإسلامِ لها خصوصيَّة ومزيّة، تنويهاً بأهمّيّة المرأة في المجتمع، وعظم الدور الذي تقوم به. فليت قومي يعلمون.

أيتام في كنف النبوة:

والمقصود بكنف النبوة أنهم كانوا في بيته، تحت رعايته صلى الله عليه وسلم المباشرة، وحمايته لهم من الأحداث والمصائب، وإن لم يتزوج بأمهاتهن، فهم إما كانوا يقومون بخدمته، أو لقرابتهم منه، أو لغير ذلك من الأسباب.

وهناك الكثير ممن كانوا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم يرعاهم، ويربيهم على الإسلام، فكانوا أبطالا في الحروب، وقادة للأمة، وأوعية للعلم الشرعي.

ومن أهم هؤلاء ما يلي:

أنس بن مالك.. الخادم الأمين والمحب العظيم:

هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. وأمه أم سليم بنت ملحان وهي أم أخيه الشقيق البراء بن

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم(5123) .

مالك رضي الله عنهما، أسلمت قبل الهجرة، ودعت زوجها مالك بن النضر إلى الإسلام، إلّا أنّه رفض دعوتها، ومات على كفره، وأنس طفل رضيع آنئذ.

وُلد أنس بن مالك قبل هجرة نبي الإسلام إلى المدينة بقرابة عشر سنوات[1]، فنشأ بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وخدمه ولازمه، حتى لُقِّب بـ "خادم الرسول"، وكان أنس على صغر سنه كاتباً ذكياً فطناً، ونشأته عند النبي الكريم كانت سبباً في تعلّمه وتفقّهه، ورواية الأحاديث عنه، حتى قيل إنّه الثالث في الحفظ عن الرسول.

وفي هذا يقول أنس بن مالك: "أخذت أمي بيدي وانطلقت بي إلى رسول الله، فقالت: يا رسول الله، إنه لم يبقَ رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفتك بتحفة، وإني لا أقدر على ما أتحفك به إلا ابني هذا، فخذه فليخدمك ما بدا لك، فخدمت رسول الله عشر سنين، فما ضربني ضربة، ولا سبني سبة، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، فكان أول ما أوصاني به أن قال: "**يا بني اكتم سري تك مؤمنًا**" فكانت أمي وأزواج النبي يسألونني عن سر رسول الله فلا أخبرهم به، وما أنا مخبر بسرِّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أحداً أبدًا".

وعندما أتت به أمه أم سليم إلى النبي ليخدمه، أخبرته أنه كاتب، وهذه ميزة عظيمة لم تكن متوفرة إلا في النفر القليل من أصحاب الرسول، مما يدل على فطنة أنس وذكائه منذ الصغر، فقد كان حينها لم يتجاوز العاشرة من عمره، وقد كان هذا الذكاء وهذه الفطنة من الأهمية بمكان، إذ حفظ وفَقِه وتعلّم من النبي الكريم، وبفضل خدمة وصحبة الرسول محمد كان لأنس بن مالك مكانة عظيمة عند المسلمين، حيث كان يحمل الكثير من كنوز السنة والسيرة النبوية، وكان مما يميز أنس بن مالك عن بقية خدم الرسول أنه لم يكن ليحتفظ بهذا العلم الذي تعلمة من الرسول لنفسه أو يكتمه عن غيره ممن لاقاهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستفاد جميع المسلمين من

(1) الإصابة لابن حجر، 1/ 276.

رواياته لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، في معاملاته وسيرته، وتتلمذ على يديه كثير من التابعين، وحفظوا ما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان مما أعلى شأن أنس بن مالك بالنسبة للمسلمين أنه سمع بعضاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن بينهما أحد، لذلك تفرد أنس ببعض الأحاديث التي لم يرويها سواه، وكان شغف كثير من الصحابة والتابعين للسماع منه ما كان من حديث الرسول عندما لم يكن بينهما أحد، وقيل إن أنس بن مالك يأتي في المرتبة الثالثة بعد عبد الله بن عمر وأبي هريرة، في كثرة الأحاديث التي رواها وحفظها من الرسول، ومسنده (1286) حديثًا، اتفق له البخاري ومسلم على (180) حديثاً، وانفرد البخاري بـ(80) حديثًا، ومسلم بـ(90) حديثاً.

عاش أنس بن مالك مع النبي الكريم أبرز أيام حياته، فكان لخدمة النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ الأثر في حياته، نقل من خلالها أنس للمسلمين أخلاق نبيهم في التعامل معه ومع زوجاته ومواليه ومع عامة الأمة، تلك الأخلاق التي رآها عن كثب، ولهذا نشأ على منهاج النبوة منذ صغره وتمثل أخلاق النبي وعاش بها ونقلها وعلَّمها، فنشأته واهتمامه بالعلم جعلا منه عالمًا من أعظم علماء المسلمين على الإطلاق.

وقد شهد أنس مع رسول الله غزوة بدر وكان عمره اثنتي عشرة سنة فقط، وكان شديد الإعجاب بشخصية رسول الله، فقد لازمه عشر سنوات ولم ينهره أو يضربه يومًا من الأيام أبدًا، يقول أنس في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: "**ما شَمَمْتُ عَنْبَرًا قَطُّ، وَلَا مِسْكًا، وَلَا شيئًا أَطْيَبَ مِن رِيحِ رَسولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ-، وَلَا مَسِسْتُ شيئًا قَطُّ دِيبَاجًا، وَلَا حَرِيرًا أَلْيَنَ مَسًّا مِن رَسولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ**"[1].

ويكفي أنس بن مالك رضي الله عنه فخرا أنه ممن شهد بيعة الرضوان، ليكون من الذين قال الله فيهم **{لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا**

(1) رواه البخاري، حديث رقم(2330) .

فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} (الفتح: 18)، وكان كذلك مجاب الدعاء فما دعا لأرض بالمطر إلا ثار السحاب وغشيت الأرض الأمطار حتى في الصيف.

كان النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة لأنس الأب والمربي والقدوة والأسوة الحسنة، وكان حريصاً أشد الحرص في فترة خدمة النبي الكريم على اقتفاء أثره، وحفظ حديثه، ومعاملته حتى مع زوجاته، لذلك اكتسب حديث أنس بن مالك أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين، حتى حزن كثير من المسلمين لوفاته، وقال مؤرق العجلي: لما مات أنس بن مالك: "**ذهب اليوم نصف العلم**"[1].

أثر التربية النبوية في أنس بن مالك:

رأينا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل هذا الخادم اليتيم، ما نهره قط مدة تسع سنوات أو عشر، ولا أنّبه على عمل تركه، ولا لامه على شيء صنعه، بل كان يرفق به، ويناديه "**يا بني**"، وأثرت هذه المعاملة الرقيقة في نفس سيدنا أنس رضي الله عنه ولا عجب بعد ذلك أن ينشأ هذا الصغير كبيرًا في صغره، متحملاً أمانة سر رسول الله في حداثة سنه، فقد ارتضع وهو صغير لبان أمه الفاضلة، وتربى من بعد على يد أعظم بشر، وأحنهم عليه، وأرفقهم به.

وكان أنس رضي الله عنه وعاء من أوعية العلم والفضائل، يعلم الناس حديث النبي الكريم ، ويحثهم على الاقتداء به، حيث بلغ عدد تلاميذه أكثر من مائتي تلميذ رووا عنه علمه.

وكان أنس حريصًا تمام الحرص على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في هديه وسمته، وعبادته، وفي ذلك يقول عنه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله

(1) المعجم الكبير للطبراني، دار مكتبة العلوم والحكم، طبعة2، 1406هـ-1985م.برقم (719).

عنه[1]: "**ما رأيْتُ أحدًا أشْبهُ صلاةً بِرسُولِ اللّهِ – صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّم – مِنْ ابْنِ أُمِّ سُليْمٍ. يعْنِي أنس بْن مالِكٍ**".

وقد عرف له الصحابة رضي الله عنهم له قدره، وكذلك التابعون من بعدهم، عنْ قتادة؛ لما مات أنس بْن مالك، قال مُورِّق: ذهب اليوم نصفُ العلم. قيل: كيف ذاك يا أبا المُعتمِر؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء، إذا خالفنا فِي الحديث، قلنا: تعال إلى من سمِعه من النبي صلى اللّهُ عليه وسلم.

ومات سيدنا أنس رضي الله عنه بالبصرة فرضي الله عنه، ورحمه رحمة واسعة.

توفي سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه في البصرة بالعراق، بعدما ملأ الدنيا علمًا، عن عمر يقارب المائة عام، يزيد قليلا أو ينقص، فقد اختلفت الروايات في سنة وفاته، والأكثر على أنه توفي سنة 93 من الهجرة[2]، وهو آخر الصحابة الذين سكنوا البصرة موتًا، وقد رُوي أنّه دُفن وتحت لسانه شعرة من شعر النبي. فتقبله الله عز وجل مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

الزبير بن العوّام.. الحواري القوي الأمين:

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النّبِيّ صلى الله عليه وسلم.

ويكنى بأبي عبد الله، بابنه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، الذي آلت إليه الخلافة بعد معاوية بن يزيد بن معاوية، وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر، بكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب، ولكن كنيته بابنه عبد الله غلبت عليه.

كانت نشأة الصحابي الجليل "الزبير بن العوام" غنية بالمواقف والعبر، والدروس، والبطولات. فقد حرصت أمه "صفية بنت عبد المطلب". على إعداده جيدًا لمواجهة

---

(1) سبق تخريجه.

(2) الإصابة لابن حجر، 1/ 276، وما بعدها.

الصعاب، والتغلب على شدائد الحياة منذ نعومة أظفاره، بعد وفاة أبيه العوام بن خويلد الأسدي وهو صغير.

فكانت تأخذه بالحزم والشدة، خوفًا عليه من الليونة والميوعة، إذ كان يتيمًا، حتى إنها كانت تضربه ذات يوم، فلامها عمه قائلًا لها: إنك لتضربينه ضرب مبغضة؛ أي كارهة لغلامها. لكنها أجابته مرتجزة:

مـن قـال إنّـي أبغضـه فقـد كـذب

وإنمـــا أضـــربه كـــي يلـــب

ويهـزم الجـيش ويـأتي بالسّـلب

ولا يكـــن لمالـــه خبـــأ مخـــب

يأكـل فـي البيـت مـن تمـر وحـب

أي إنها إنما تعلمه الرجولة، وأن يتصرف كالكبار، ليقود الجيش الجرار، لا أن يتصرف برعونة، ويرتكب حماقات الأطفال، وقد صدق حدسها، وكان الزبير من القادة الأبطال الذي يجرُّون الجيوش خلفهم في الحروب.

ولا عجب بعد تلك التنشئة الحازمة أن ملامح البطولة والحزم في شخصية هذا الطفل بدأت بالظهور مبكرًا، وتمثل ذلك في مصارعة أقرانه والتغلب عليهم في دروب مكة، بل وغير أقرانه أيضًا، فقد صارع وهو غلام بمكة رجلاً مرة فصرعه وكسر يده، فمرّ بالرجل محمولاً على صفية فسألته عنه، فقالت: كيف رأيت زَبْرًا؟ أقطًا وتمرًا؟ أو مُشمَعلًا صَقْرًا (خفيفًا سريعًا) صقرا؟ [1].

كما أن نضجه العقلي كان مبكرًا حيث أسلم رضي الله عنه قبل أن يغادر مرحلة الطفولة بل في عمر الثانية عشرة، وقيل: في عمر الثامنة؛ وهذا مما يدل على عمق تفكيره، وحسن إدراكه للأمور وهو في هذه السن المبكرة، وهو ما غاب عن صناديد

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر،تحقيق/ طاهر أحمد الزاوى ، محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية، بيروت:1399هـ/1979م 333/4.

قريش، وكبار رجالاتها. وما ذلك إلا لكثرة تردده على بيت النبوة، بسبب علاقة القربى بينهما، وكان إسلامه بعد أبِي بكر رضي اللّه عنه، بيسير، كان رابعًا أو خامسًا في الإسلام[1].

وكما كان نضجه العقلي مبكرًا فقد كانت إرادته فولاذية كذلك، لا يلين للباطل أبدًا، فقد بدأ مرحلة جديدة في حياته على يد ابن خاله النبي صلى الله عليه وسلم، ذاق فيها حلاوة الإيمان، وعلى صخرة إيمانه الصلدة تحطمت جميع محاولات عمه لإعادته إلى الكفر وباءت بالفشل، على الرغم من تعرضه للتعذيب الشديد، الذي بلغ حد محاولة إزهاق روحه "حرقا وخنقًا بالدخان"، فقد كان عمه يلفه في حصير ثم يشعل فيها النار حتى إذا بلغت حدًّا معينًا أطفأها وترك دخانها عليه كي يزهق أنفاسه، ثم يساومه أثناء ذلك ليخفف عنه العذاب قائلاً: اكفر برب محمد أدرأ عنك العذاب.

ولكن هل يقبل من تربى على يد النبي محمد بن عبد الله أن يلين للكفر والباطل؟ إن هذا الغلام علم الدنيا معنى البطولة، فلم يكن يستجيب لمساومات عمه.. بل كان حاسمًا في مواجهة هذه المحاولات البائسة، وأعلن كلمته الخالدة في تحد صارخ، قالها قوية مدوية: "**والله لا أعود للكفر أبدًا**".

ويسجل التاريخ للزبير بن العوام رضي الله عنه في مراهقته أنه أول من سلّ سيفًا في الإسلام، فقد كان المسلمون قلة يستخفون في "دار الأرقم" وسرت شائعة ذات يوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قُتل، فما كان من "الزبير" إلا أن استل سيفه، وانطلق في شوارع مكة يتبين الخبر عازمًا –رغم حداثة سنه– أن يعمل سيفه في رقاب القتلة مهما كانت أسماؤهم أو قوتهم.

عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه: **إِنّ أوّل رجُلٍ سلّ سيْفهُ فِي اللّهِ الزُّبيْرُ بْنُ الْعوّامِ، نفْخةٌ نفخها الشّيْطانُ، أُخِذ رسُولُ اللّهِ، فخرج الزُّبيْرُ يشُقُّ النّاس بِسيْفِهِ**

(1) محمد رسول الله، لمحمد الصادق عرجون، دار القلم، ط2، 1415هـ/1995م ، 533/1.

والنّبِيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم بِأعْلى مكّة قال: "ما لك يا زُبيْرُ؟" قال: أُخْبِرْتُ أنّك أُخِذْت، قال: "فصلّى عليْهِ ودعا لهُ ولِسيْفِهِ"[1].

حتى إن حسان بن ثابت رضي الله عنه مدحه بذلك، فقال:

أقــام علــى عهــدِ النبــيّ وهديــهِ حواريــــهُ والقــولُ بالفعــلِ يعــدلُ
أقـــام علـــى منهاجـــهِ وطريقـــهِ يُـوالي ولـيّ الحـقِّ، والحـقُّ أعـدلُ
لــهُ مــن رسُـولِ اللّــهِ قُرْبــى قريبــة ومــن نُصــرةِ الإسـلامِ مجـدٌ مؤثـلُ

ولم تتوقف بطولات "الزبير" في مرحلة حداثة سنه عند هذا الحد.. فكما كان "الزبير" أحد السابقين إلى الإسلام كان أيضًا من السابقين بالهجرة إلى الحبشة.. وهناك ارتبط اسمه بعمل شجاع قام به نزولاً على رغبة المسلمين المهاجرين الذين لقوا الرعاية والحماية في كنف النجاشي. فقد حدث أن نازع رجل من الحبشة النجاشي الحكم، ودخلا معًا في معركة حاسمة، الأمر الذي أحزن المسلمين، وأقلقهم، وجعلهم في أشد الحاجة إلى معرفة أخبار تلك المعركة التي كان النيل يفصلهم عنها، ويمنعهم أخبارها.. لكن أحدًا لم يسعفهم.. فماذا فعلوا؟.

اجتمعوا.. وتشاوروا.. وقرروا أن يرسلوا أحد المسلمين إلى مكان المعركة ليأتيهم بالخبر.. ولكن من هو هذا الفدائي البطل الذي يضحي بنفسه، ويقبل الذهاب إلى أرض المعركة، ويعبر النيل في تلك المنطقة الهادرة بالأمواج. فكان الزبير يجيب بأعلى صوت وبكل ثقة: أنا أذهب.

كان أصغر المهاجرين إلى الحبشة سنًا.. فنفخوا له "قربة" جعلها في صدره، وسبح عليها حتى عبر النيل، ووصل إلى مكان المعركة، ثم عاد يبشر المسلمين بنصر النجاشي على عدوه.

---

(1) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة،تحقيق/ وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة ،ط1، بيروت: 1403هـ/1983م،حديث رقم (1262) .

ثم عاد إلى رحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وهاجر معه إلى المدينة، وشهد معه غزواته كلها، ومن ثم كان من حواري نبي الإسلام، عنْ جابِرٍ رضِي اللّهُ عنْهُ، قال: قال النّبِيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم: "**إِنّ لِكُلِّ نبِيٍّ حوارِيًّا، وإِنّ حوارِيّ الزُّبيْرُ بْنُ العوّامِ**"[1].

ويقول ولده عبد الله بن الزبير: "كُنْتُ يوْم الأحْزابِ جُعِلْتُ أنا وعُمرُ بْنُ أبِي سلمة فِي النِّساءِ، فنظرْتُ فإِذا أنا بِالزُّبيْرِ، على فرسِهِ، يخْتلِفُ إِلى بنِي قُرِيْظة مرّتيْنِ أوْ ثلاثًا، فلمّا رجعْتُ قُلْتُ: يا أبتِ رأيْتُك تخْتلِفُ؟ قال: أوهلْ رأيْتنِي يا بُنيّ؟ قُلْتُ: نعمْ، قال: كان رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، قال: "**مـنْ يـأْتِ بنِـي قُرِيْظـة فيـأْتِينِي بِخبرِهِمْ**". فانْطلقْتُ، فلمّا رجعْتُ جمع لِي رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم أبويْهِ فقال: "**فِداك أبِي وأُمِّي**"[2].

والزبير –كما هو معلوم– كان ممن بعثهم عمر بن الخطاب بمدد إلى عمرو بن العاص في فتح مصر وقد ساعد ذلك المسلمين كثيراً لما في شخصيته من الشجاعة والحزم، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى الذين عهد عمر إلى أحدهم بشئون الخلافة من بعده.

مات الزبير رضي الله عنه مقتولاً، حيث قتله ابن جرموز غدراً عندما انصرف وترك القتال يوم الجمل، فرضي الله عنه، ورفع درجته في الخالدين.

إن تربية النبي صلى الله عليه وسلم له، وتهيئته للقيام بمعارك الإسلام الفاصلة كان لها الأثر البارز في شجاعة الرجل وإقدامه، فقد قدمه النبي الكريم في عدد من المعارك أمام العدو، ولذلك يقول فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه: وكم كربة ذب الزبير بسيفه عن المصطفى والله يعطي ويجزل فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس يكون الدهر ما دام يبذ

---

(1) أخرجه البخاري، حديث رقم (2847).

(2) أخرجه الترمذي، حديث رقم (3743) .

أيتام بجوار النبوة:

يتجاهل كثير من الناس مشاعر الأطفال اليتامى، فلا يبالي الواحد منهم أن يظهر اليتيم أمام الناس بأنه كذاب أو ناقل للكلام، ويظن أن ذلك كله أمر هين لا يؤبه به، فهو ما زال طفلا، فلا ينبغي أن يراعى جانبه، فيظل اليتيم يعاني من الإحساس بالمرارة، وقلة النصير، علاوة على نظرات الناس إليه بالاحتقار والازدراء، بينما يراعي هذا الفريق جانب الكبير، مراعاة لسنه أو مقامه في قومه، ولو كان مخطئًا، ولكن الله عز وجل له مقياس ثابت وضعه للبشر، وهو العدل والمساواة بينهم جميعًا، فلا بد من إعطاء الحقوق لأصحابها، وتحمل المخطئين –ولو كانوا كبارًا– ثمار أخطائهم، وتبرئ ساحة غير المخطئين ولو كانوا أيتامًا صغارا.

هناك بعض الآيات التي نزلت تبرئة لبعض الأيتام مراعاة لحالتهن النفسية والوجدانية، بعدما اتهموا بتهم خطيرة كالعقوق، والكذب، والسعي بين الناس بالنميمة، وهي تهم كانت كفيلة بسلب الثقة منهم في المجتمع، ووصمهم بأشنع الصفات، كالسعي في الأرض بالفساد، وتأليب الفتنة بين المسلمين، فجاء القرآن الكريم ليضع الحق في نصابه، وينزل فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، يظهر براءتهم للجميع، ويعلم الناس أن الحق أحق أن يتبع.

ومن أهم هؤلاء الأيتام:

عمير بن سعد..نسيج وحده:

الغلام الصغير عمير بن سعد الأنصاري تجرّع كأس اليُتْم والفاقة منذ نعومة أظفاره، فقد مضى أبوه إلى ربه، ولم يترك له مالاً ولا معيلاً، لكن أمه ما لبثت أن تزوجت رجلاً ثريًّا من أثرياء الأوس في المدينة يدعى الجلاَّس بن سويد، فكفل ابنها عميراً، ولقي عمير مِن برِّ الجلاس وحسنِ رعايته وجميل عطفه ما جعله ينسى أنه يتيم .

أحب عمير الجلاس حبَّ الابن لأبيه كما أولع الجلاس بعمير ولع الوالد بولده، كأن عمير ابن الجلاس، وكأن الجلاس والد عمير، وكان كلما نما عمير وشب يزداد الجلاس له حباً وبه إعجاباً كما كان يرى به أمارات الفطنة والنجابة التي تبدو في كل عمل من أعماله .

أسلم الفتى عمير، وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير لم يجاوز العاشرة من عمره، فوجد الإيمان في قلبه الغض مكاناً خالياً فتمكن منه .

فكان على حداثة سنه لا يتأخر عن صلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أمه تغمرها الفرحة كلما رأته ذاهبا إلى المسجد أو آيبا منه تارة مع زوجها وتارة وحده، وسارت حياة الغلام عمير بن سعد على هذا النحو: هانئة وادعة لا يعكر صفوها معكر ولا يكدر هناءتها مكدر حتى شاء الله أن يعرض الغلام اليافع لتجربة من أشد التجارب مرارة ، وأعنفها قسوة، وأن يمتحنه امتحانا قلما مر بمثلها فتى فى سنه.

ففي السنة التاسعة للهجرة أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه على غزو الروم في تبوك وأمر المسلمين بأن يستعدوا ويتجهزوا لذلك وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغزو غزوة لم يصرح بها وأوهم أنه يريد جهة غير الجهة التى يقصد إليها، إلا في غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وعظم المشقة وقوة العدو ليكون الناس على بينة من أمرهم فيأخذوا للأمر أهبته ويعدوا له عدته.

وعلى رغم من أن الصيف كان قد دخل والحر قد اشتد والثمار قد أينعت والظلال قد طابت والنفوس قد ركنت إلى التراخى والتكاسل، على الرغم من ذلك كله فقد لبى المسلمون دعوة نبيهم عليه الصلاة والسلام وأخذوا يتجهزون ويستعدون.

غير أن طائفة من المنافقين أخذوا يثبطون العزائم ويوهنون الهمم ويثيرون الشكوك ويغمزون (يذكرونه بسوء) صلوات الله وسلامه عليه ويطلقون فى مجالسهم الخاصة من الكلمات ما يدمغهم بالكفر دمغا، وفى يوم من هذه الأيام التى سبقت رحيل الجيش عاد الغلام عمير بن سعد إلى بيته بعد أداء الصلاة فى المسجد وقد

امتلات نفسه بطائفة مشرقة من صور بذل المسلمين وتضحيتهم رآها بعينيه وسمعها بأذنيه، فقد رأى نساء المهاجرين والأنصار يقبلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزعن حليهن ويلقينه بين يديه ليجهز بثمنه الجيش الغازى فى سبيل الله.

وأبصر بعينيه عثمان بن عفان يأتى بجراب فيه ألف دينار ذهبًا ويقدمه للنبى صلى الله عليه وسلم، وشهد عبد الرحمن بن عوف يحمل على عاتقه مائتى أوقية من الذهب ويلقيها بين يدى النبى الكريم، بل إنه رأى رجلاً يعرض فراشه للبيع ليشترى بثمنه سيفا يقاتل به فى سبيل الله.

فأخذ عمير يستعيد هذه الصور الفذة الرائعة ويعجب من تباطؤ الجلاس عن الإستعداد للرحيل مع النبي صلى الله عليه وسلم، والتأخر عن البذل على الرغم من قدرته ويساره وكأنما أراد عمير أن يستثير همة الجلاس ويبعث الحمية في نفسه.

فأخذ يقص عليه أخبار ما سمع ورأى وخاصة خبر أولائك النفر من المؤمنين الذين قدموا على رسول الله وسألوه فى لوعة أن يضمهم إلى الجيش الغازى فى سبيل الله فردهم النبى؛ لأنه لم يجد عنده من الركائب ما يحملهم عليه، فتولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما يبلغهم أمنيتهم فى الجهاد، ويحقق لهم أشواقهم إلى الاستشهاد.

لكن الجلاس ما كاد يسمع من عمير ما سمع حتى انطلقت من فمه كلمة أطارت صواب الفتى المؤمن إذ سمعه يقول: "**لئن كان ما يقوله محمد حقًّا فلنحن شر من الحمير**"، يقصد ما يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن في حق إخوانه من المنافقين من الذين نعموا باليسار في الدنيا، وتخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختلقوا أعذارًا وهمية وكانت لهم وجاهة اجتماعية، ولكنهم عند الله من المقبوحين.

لقد شُده عمير مما سمع، وانقبضت أساريره، فما كان يظن أن رجلاً له عقل الجلاس وسنهُ تشرد من فمه مثل هذه الكلمة التي تخرج صاحبها من الإيمان دفعة واحدة وتدخله في الكفر من أوسع أبوابه.

سمع عمير بن سعد هذه العبارات ففجرت في نفسه الوديعة الهادئة الغيظ والحيرة .. الغيظ، لأن واحدًا يزعم أنه من المسلمين يتناول الرسول بهذه اللهجة الرديئة .. والحيرة، لأن خواطره دارت سريعًا على مسؤوليته تجاه هذا الذي سمع وأنكر ..ينقل ما سمع الى رسول الله ؟

كيف، والمجالس بالأمانة .. ؟

أيسكت ويطوي صدره ما سمع ؟

كيف ؟ وأين ولاؤه ووفاؤه للرسول الذي هداهم الله به من ضلالة، وأخرجهم من ظلمة .. ؟

لكن حيرته لم تطل، فصدق النفس يجد دائمًا لصاحبه مخرجًا .. وعلى الفور تصرّف عمير كرجل قوي، وكمؤمن تقي .. فوجه حديثه إلى جلاس بن سويد : " والله يا جلاس إنك لمن أحب الناس إلي، وأحسنهم عندي يدًا، وأعزهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه .. ولقد قلت الآن مقالة لو أذعتها عنك لآذتك .. وأن صمتّ عليها، ليهلكن ديني، وأن حق الدين لأولى بالوفاء، وإني مبلغ رسول الله ما قلت ، فكن على بينة من أمرك ".. !

وأرضى عمير ضميره الورع تمامًا .. فهو أولاً أدّى أمانة المجلس حقها، وارتفع بنفسه الكبيرة عن أن يقوم بدور المتسمّع الواشي .. وهو ثانيًا أدى لدينه حقه، فكشف عن نفاق مريب .. وهو ثالثًا أعطى جلاس فرصة للرجوع عن خطئه واستغفار الله منه حين صارحه بأنه سيبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو أنه فعل آنئذ، لاستراح ضمير عمير ولم تعد به حاجة لابلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم .

بيد أن جلاسًا أخذته العزة بالإثم، ولم تتحرك شفتاه بكلمة أسف أو اعتذار، وغادرهم عمير وهو يقول : " لأبلغنّ رسول الله قبل أن ينزل وحي يشركني في إثمك"..

مضى الفتى عمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما سمع من الجلاس بن سويد، فاستبقاه النبي صلى الله عليه وسلم عنده، وأرسل أحد أصحابه ليدعو له الجلاس، وما هو إلا قليل حتى جاء الجلاس فحيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس بين يديه.

فقال له النبى: ما مقالة سمعها منك عمير بن سعد، وذكر له ما قاله، فقال: كذب علي يا رسول الله، وافترى ، فما تفوهت بشيء من ذلك وأخذ الصحابة ينقلون أبصارهم بين الجلاس وربيبه عمير بن سعد، كأنهم يريدون أن يقرؤوا على صفحتي وجهيهما ما يكنه صدريهما، وجعلوا يتهامسون، فقال واحد من الذين فى قلوبهم مرض: فتى عاق أبى إلا أن يسيء إلى من أحسن إليه. وقال آخر: بل إنه غلام نشأ فى طاعة الله عز وجل، وإن قسمات وجهه لتنطق بصدقه.

والتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمير فرأى وجهه قد احتقن بالدم والدموع تتحدر مدراراً من عينيه فتتساقط على خديه وصدره وهو يقول: اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به، اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به، فانبرى الجلاس وقال: إن ما ذكرته لك يارسول الله هو الحق، وإن شئت تحالفنا بين يديك وإني أحلف بالله أني ما قلت شيئًا مما نقله لك عمير.

فما إن انتهى من حلفه، وأخذت عيون الناس تنتقل عنه إلى عمير بن سعد، حتى غشيت الرسول صلى الله عليه وسلم عليه السكينة، فعرف الصحابة أنه الوحي، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت ، فخشعت الأصوات ، وتعلقت أبصارهم بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا ظهر الخوف والوجل على الجلاس ، وبدأ التلهف والتشوق على عمير، وظل الجميع كذلك حتى سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا قول الله تعالى

{يحْلِفُون بِاللّهِ ما قالُوا ولقدْ قالُوا كلِمة الْكُفْرِ وكفرُوا بعْد إِسْلامِهِمْ وهمُّوا بِما لمْ ينالُوا وما نقمُوا إِلّا أنْ أغْناهُمُ اللّهُ ورسُولُهُ مِنْ فضْلِهِ فإِنْ يتُوبُوا يكُ خيْراً لهُمْ وإِنْ يتولّوْا يُعذِّبْهُمُ اللّهُ عذاباً أليماً فِي الدُّنْيا والْآخِرةِ وما لهُمْ فِي الْأرْضِ مِنْ ولِيٍّ ولا نصِيرٍ} (التوبة:74).

تنفس عمير الصعداء، وشعر أن كل ذرة في جسده تريد أن تسجد شكرًا لله الذي استجاب دعاءه، وأظهر براءته. وهنا علم الجلاس خطورة ما تلفظ به، وارتعد من هول ما توعده الله عز وجل به، ثم لاذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال: أسمع اللّه قد عرض علي التوبة، واللّه لقد قلت ما قال عمير، ولما اعترف بذنبه ، وحسنت توبته ، ولم يمتنع عن خير كان يصنعه إلى عمير بن سعيد ، فكان ذلك مما قد عرفت به توبته[1].

وقد عرف الصحابة صلاح حاله مما كان يغدقه على عمير من بر، وقد كان يقول كلما ذكر عمير: جزاه الله عني خيرًا ، فقد أنقذني من الكفر واعتق رقبتي من النار، وبَعْدُ فليست هذهِ أوضأ صورةٍ في حياةِ الغلامِ الصَّحابيِّ عُمَيرِ بنِ سَعْدٍ، ولا أشدَّها تَألقا، وإنما فى حياته من الصور ما هو أزهى وأجمل.

وهنا توجه الرسول صلوات الله عليه إلى الفتى عمير بن سعد فإذا دموع الفرح تبلل وجهه المشرق بنور الإيمان فمد الرسول يده الشريفة إلى أذنه وأمسكها برفق وقال: "**وفتْ أُذُنُك يا عُميْرُ وصدّقك ربُّك**"[2].

وبهذا الحنان من النبي الكريم ، ونزول الوحي في حق عمير الغلام اليتيم نشأ هذا الغلام قويًّا فتيًّا، قائدًا مقدامًا، لا يخاف في الله لومة لائم، حتى إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: "**ودِدْتُ أنَّ لي رجلًا مِثلَ عُمَيرٍ ودِدْتُ أنَّ لي**

---

(1) الإصابة 1/ 599.

(2) فتح الباري لابن حجر، 514/8.

رجالًا مِثلَ عُمَيرٍ أستعينُ بهم في أعمالِ المسلمين"[1]. ومن ثم فلا عجب أن يتولى قيادة بعض الجيوش في خلافة عمر رضي الله عنه، كما تولى إمارة كلا من حمص ودمشق.

ومن فضائله رضي الله عنه ما روى الذهبي في سيره: "زهاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعمير بن سعد".

و كان الصحابة يلقبونه " نشيج وحده " !!..وناهيك برجل يجمع على تلقيبه بهذا اللقب أصحاب رسول الله، وبما معهم من فضل وفهم ونور .. !!

ظل عمير بن سعد في أواخر عمره مقيمًا بإحدى ضواحي المدينة المنورة حتى مات بها في آخر خلافة عمر، فرضي الله عنه، وأسكنه فسيح جناته.

زيد بن أرقم.. صاحب الحق:

هو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك بن الأغر بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، من بني الحارث بن الخزرج.

تربى زيد في كنف زوج أمه عبد الله بن رواحة، ذلك الفارس الجواد، والشاعر النبيل، فكان كلما حدثه عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى اشتاقت نفسه لرؤيته، فلما علم أنه قد قدم إلى المدينة أسرع ضمن الجموع الغفيرة التي راحت تستقبله وهم في أسعد حالاتهم، كان ينظر إلى النبي الكريم يتأمل صورته الشريفة ويحلم باللحظة التي يجلس فيها بين يديه.

ولما أمر النبي ببناء المسجد، كان يعمل مبتهجًا والابتسامة المشرقة تنتشر على صفحة وجهه فكان يشمر عن ساعديه كالكبار، ليحمل معهم مواد البناء، وهو يغرد بصوته الرقيق الأناشيد العذبة التي كانوا يرددونها ولما كان النبي يجلس بين أصحابه كالقمر المنير يمنحهم من فيض نوره ما يملأ قلوبهم بالإيمان، كان زيد بن أرقم يجلس

---

(1) أخرجه الطبراني: المعجم الكبير، حديث رقم (51/17) (109) .

بينهم لينال حظه من هذا النور، ولقد أحس بالحزن الشديد والأسف يمزق نياط قلبه لأنه لم يشارك في غزوة بدر، يريد ان يحمل سيفاً مثل هؤلاء الرجال الأبطال ليضرب وجوه المشركين. لكن النبي طيب خاطره بكلمات حانية ورده مع إخوانه الصغار الذين لم يشتد عودهم بعد، عادوا جميعًا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يشاركوا في الجهاد وينالوا نصيبهم من الأجر العظيم.

وفي غزوة أحد يتكرر المشهد مرة أخرى فلم يملك إلا الإذعان لأوامر النبي والعودة إلى المدينة، فانه لا يزال غض العود ، في الوقت الذي عاد فيه المنافق عبد بن سلول منخذلا بمن معه من المنافقين.

وظل زيد بن أرقم يمني نفسه الجهاد في هذه السن الصغيرة، حتى تنامي إلى مسامع النبي صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له جيشًا لشن هجوم خاطف عليه في المدينة، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، فلما تأكد نبي الإسلام من الخبر، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له (المريسيع)، وهناك التحم الناس ودارت المعركة، وكان زيد بن أرقم رضي الله عنه يقاتل فيها بضراوة شديدة، وكان أحد أبطالها، حتى كتب الله لهم الفوز وانهزم بنو المصطلق تفرقوا بعدها هاربين من أرض المعركة تاركين أنعامهم ونساءهم.

وقبل أن يحزم الناس أغراضهم للعودة بهذا النصر المبين، تزاحم بعض الفتيان على الماء، فأقبل أجير لعمر بن الخطاب يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم معه سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني، يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه وبينهم هذا الصحابي الكريم، وكان أصغرهم جميعًا بيد أنه أفضلهم لدين الله وأغيرهم على حبيبه وأستاذه وقائده محمد صلى الله عليه وسلم أن تمسه ولو كلمة. قال ابن سلول، أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: "سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على

من حضره من قومه (من هم على شاكلته) وقال بصوت كالفحيح، هذا ما فعلته بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم[1].

أصابت الكلمات قلب الصحابي اليتيم بالذهول؛ فإذا بالدماء تفور في جسده وتنتفخ بها أوداجه، ويحتقن وجهه بالانفعال والغضب، كيف يقولون هذا السخف والهراء في حق أعظم إنسان على وجه الأرض، إنه كلام يودي بصاحبه إلى التهلكة، بل في قاع جهنم، وهكذا قرر أن يبلغ رسول الله بكل ما سمعه، ولا اعتبر نفسه خائنًا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فالإيمان الذي ترسخ في أعماق قلبه يأبى عليه أن ينضم إلى صفوف المنافقين، ويسكت عن تآمرهم، فيصبح واحدا منهم، ومن هنا فقد حمل زيد جسده الخفيف، وانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر، وكان عنده عمر بن الخطاب، والذي قال بغضب: يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : **فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا ولكن ائذن بالرحيل.**

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل لابن سلول يسأله عن حقيقة قوله، فتلون وجهه كما تتلون الحرباء، وراح يحلف بالله العظيم أنه لم يقل مثل هذا القول، واتهم – بكل تبجح وصفاقة– ذلك الصحابي الجليل بالكذب والافتراء، وقد كان ابن سلول، من سادات يثرب قبل مجيء النبي الكريم إليها، وله المكانة السامية بينهم، حتى إنهم كانوا يعدون الخرز ليتوجوه عليهم، فلما أكرمهم الله بهذا النبي الكريم التفوا جميعًا حوله، فآزروه ونصروه ونسوا هذا الذي ينتظر التاج، فامتلا قلبه بالحقد والغضب وتمنى من أعماق قلبه أن يذهب النبي وأصحابه المهاجرون عن المدينة؛ ليستعيد مكانته التي هيأ نفسه لها، فلما وجد أن أمر الإسلام قد شاع وانتشر، وأصبحت قلوب الجميع تدور في فلك نبي الإسلام، أضمر في نفسه الحقد والشر، وحاول أن يظهر

(1) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة 1941م.،199/1.

الإسلام نفاقًا، فلما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم، وها هو يقسم بالأيمان المغلظة أنه لم يقل مثل هذا الكلام. عندئذ وقع من الهم والحزن على قلب هذا الصحابي ما لم يقع على أحد من العالمين، وأصبح الناس في المدينة بين مصدق ومكذب.

يقول زيد: فبينما أنا أسير مع رسول الله في سفر، قد خفقت برأسي من الهم، إذ أتاني رسول الله فعرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ؟ قلت: ما قال شيئا إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي. قال: أبشر ثم لحقني عمر، فقلت له مثل قولي لأبي بكر فلما أصبحنا قرأ رسول الله في سورة المنافقين[1]. وهكذا أنزل الله هذه السورة لتبرئة الصحابي الجليل زيد بن أرقم وتصدقه فيما قال، وترفع عنه ما قد ألم به من هم وحزن، وعليكم أعزاءنا الصغار أن تقتدوا بمثل هذه العلامات المضيئة والسرج العالية[2].

وأنّى للرسول الأكرم لا يمنح زيداً ـ رضي الله عنه ـ ثقته!؟ .. وهو من أعزّه ربّه فأنزل فيه قرآناً يؤكد صدق قلبه ولسانه وفعاله، يبرئه من النفاق والشقاق، ويصفه بأجلّ الصفات والأخلاق. يقول له النبي صلى الله عليه وسلم: "**إنّ الله عزّ وجلّ قدْ صدّقك وعذرك**"[3].. لله درّه.. حين تسرّب الصدق عبر مسامه، مستكيناً جوف فؤاده فهم إليه سيد البشرية صلوات الله وسلامه عليه بالإشارة بقوله: "**هذا الذي أوفى لله بأذنه**"[4].

ومن هذا التاريخ فقد سرى حبُّ الجهاد في شرايين زيد بن أرقم وأوردته مجرى الدم، فطفق محترفاً للجهاد، لا ينثني عن تلبيه النداء، ولا يتخاذل عن منازلة الأعداء، يتقدم الركب إليه، واللحاق به، غير آبه بما تساوره من أسباب، أو تكابده من ظروف،

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة،408/2.

(2) تفسيرالطبري،108/12.

(3) شعيب الأرناؤوط: تخريج المسند، حديث رقم(19295) .

(4) أخرجه البخاري، حديث رقم (4906) .

جاعلاً من العقيدة أساساً لعمله، فإن كان عمل القلب يفوق عمل الجوارح، فإن تحقيق الكمال في كليهما مطلب عند صحابيّنا الجليل زيد بن أرقم رضي الله عنه.

ومنذ هذا الوقت أصبح "زيد بن أرقم" ملازمًا للنبي صلى الله عليه وسلم في كل غزواته، فقد وهب نفسه للجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمته، ودفاعًا عن دينه. ونشرًا لتعاليمه فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم سبعين حديثًا، منها اثنا عشر حديثًا في الصحيحين، اتفق البخاري ومسلم على أربعة منها، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بستة. روى عنه أنس بن مالك، وابن عباس، وكثير من التابعين.

ونظرًا لأنه قد تبوّأ مكانةً سما بها في نفس النبي صلى الله عليه وسلم فقد ظلّ بينهما وصل لم ينقطع، حتى أن عاده النبي الكريم في مرض أصاب عينه، فقال له: "**ليسَ عليكَ من مرضِكَ هذا بأسٌ ولكن كيفَ بكَ إذا عُمِّرتَ بعدي فعميتَ؟**" قال" أصبرُ وأحتسبُ. قال: " **إذن تدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ**"[1].

فأصابه العمى بعد ممات النبي صلى الله عليه وسلم ثم ردّ الله عزّ وجل إليه بصره، بعدها مات رحمه الله سنة ثمان وستين للهجرة بالكوفة.

(1) السيرة النبوية الصحيحة، 2/ 408.

الخاتمة

لقد عاني النبي الهاشمي الله صلى الله عليه وسلم من اليتم طوال حياته ، فقد أباه, ثم أمه, ثم جده، ثم عمَّه, وهو في كل هذا جبل شامخ, لا تزيده الشدائد إلا شموخاً وثباتاً, فأدبه ربه, فأحسن تأديبه.. لقد أحس النبي بالظلم الشديد من نظرة المجتمع إلى اليتيم ، فحرص أشد الحرص على رد الاعتبار إلى اليتيم ، ورغّب في كفالته ورعايته ، وشدد على حصوله على حقوقه كاملة غير منقوصة ، فكان في توجيهاته صلى الله عليه وسلم – بالإضافة إلى التوجيهات القرآنية أولاً– الحل الأمثل لمشكلة الأيتام ، فسارت حياة اليتيم في ظل الإسلام على نهج جديد وفريد ، عاش فيه اليتيم عزيزا كريمًا ، مصانًا محفوظًا ، بعيدًا عن التوترات النفسية والمشكلات المادية ، وظهر في المجتمع المسلم في عصر النبوة نماذج فريدة من الصحابة ممن عاشوا أيتامًا –ولكن بفضل الله أولا ثم بجهود بالتربية النبوية ثانيًا – زالت مشاكلهم فكانوا من الأئمة الذين يقتدى بهم وتقتفى آثارهم.

المؤلف

- **د/ عبد الوهاب القرش**
- **دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة.**
- **كاتب وباحث ومعد مناهج في العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي**
- **اشترك في كتابة عدد من الموسوعات مثل:الموسوعة التركية، موسوعة التاريخ الإسلامي، موسوعة سفير ، معجم المصطلحات الحضارية في القرآن الكريم، موسوعة الإدارة العربية .**
- **اشترك في تحقيق كتاب جامع تاريخ الدول ، نشر مركز الدراسات العثمانية .**
- **قام بإعداد عدد كبير من المناهج في العلوم الإسلامية للجامعة الدولية بأمريكا الشمالية والجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية وجامعة أم درمان الإسلامية من أهمها: تاريخ الأمريكيتين ، تاريخ الدولة الإسلامية ، العقيدة الإسلامية ، البلاغة ، تاريخ الخلفاء الراشدين، فقه السيرة، الحضارة الإسلامية ، الثقافة الإسلامية.**
- **قام بإعداد التصميم التعليمي لعدد كبير من المواد الدراسية المقررة في كليات الدراسات العربية والإسلامية والإعلام والأقتصاد الإسلامي بالجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية.**
- **كاتب في الفكر الإسلامي في عدد من الدوريات المصرية و العربية والدولية منها:جريدة الوفد ، الملحق الثقافي بمجلة الإذاعة والتلفزيون، مجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجلة العربي الكويتي، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية**

،مجلة الرافد الإماراتية ، مجلة الداعي الهندية، مجلة صوت العروبة بالولايات المتحدة الأمريكية، المجلة التركية، موقع إسلام أون لاين، موقع دنيا الوطن.

- حصل درجة الدكتوراه الفخرية من منظمة الفرات للسلام العالمي تقديرًا لأبحاثه في مقارنة الأديان عام 2017م.
- من مؤلفاته تحت الطبع :القرآن الكريم مبهر الأمم ، الإسلام والغرب..دراسة في الجذور التاريخية ، الداعية الإسلامي وفقه التاريخ الإسلامي.

بريد إلكتروني: dr.elqersh@gmail.com

مع تحيات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الادارة

عبد القادر الحسيني

المشرف العام

محمد عبد القادر الحسيني

المدير العام

عصام عبد القادر

نائب المدير

حسام الدين عبد القادر الحسيني

الهيئة الاستشارية للدار

الدكتور حسام عقل الدكتور على جاد الحق

الدكتورلطفي سيد صالح الدكتور بسيم عبد العظيم

الشاعر عادل عبدالموجود